روح الاجتماع

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمه من اللغة الفرنساوية

« المرحوم »

أحمد فتحي زغلول باشا

(الطبعة الثانية)

« عنى بتصحيحه ونشره »

توفيق الرافعي

(باذن من حضرة صاحب المعالى نصير الامة ولوطن)

« سعد زغلول باشا »

المطبعة الرحمانية

بالخرنفش بمصر رقم ٣٥

روح الاجتماع

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمة من اللغة الفرنساوية

« المرحوم »

أحمد فتحي زغلول باشا

(الطبعة الثانية)

« عنى بتصحيحه ونشره »

توفيق الرافعي

(باذن من حضرة صاحب المعالي نصير الامة والوطن)

« سعد زغلول باشا »

المطبعة الرحمانية

بالخرنفش بمصر رقم ٣٥

« كلمة للناشر »

بسم الله الرحمن الرحيم

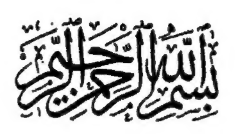
والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

وبعد فهذا كتاب «روح الاجتماع» الذى وضعه العلامة نادرة الفلاسفة الدكتور جوستاف لوبون وقد هداه اليه بحثه الطويل فى تكوين الشعوب والأمم وتطورها وأوضاع تواريخها وتقلب حوادثها واختلاف مدنياتها واعتباره كل ذلك بالفكر النقاد والبحث الفلسفى العميق الذى امتاز به ذلك الفيلسوف العظيم .

وقد كان من حظ اللغة العربية أن الذى نقل هذا الكتاب الممتع اليها هو الاستاذ العلامة المرحوم احمد فتحي باشا زغلول وهو لا يقل عن المؤلف نفسه ذكاء ودقة واستنباطاً بحيث أخرج الكتاب إلى هذه اللغة وكأنه فى مطابقته للاصل خارج من قلم المؤلف لا من قلمه

وقد تفضل حضرة صاحب المعالي سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصرى فأذن لنا فى إعادة طبع هذا الكتاب ونشره خدمة للامة فكان ذلك فضلا جديداً لمعاليه علينا وعلى الناس نسأل الله تعالى أن يوفقه إلى صالح الاعمال والسلام م؟

أغسطس سنة ١٩٢١ توفيق الرافعى



الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله

قرأت مؤلفاً جديداً للعالم الفرنساوى المعروف الدكتور جوستاف لوبون صاحب كتاب (تمدن العرب) وضعه فى بيان أحوال الجماعات وما يعرض للفرد مجتمعاً من تغير المشاعر واختلاف النظر وتبدل حكمه فيما يحيط به وسماه (روح الاجتماع) ورأيت فى نقله الى العربيـة فائدة لأهلها فاستأذنت المؤلف فى ذلك فتفضل بالإجازة

طُلب منى أن أضع مقدمة تشرح بعض الشرح موضوع الكتاب وتبين طرفاً مما اشتمل عليه فترددت كثيراً ثم رأيت أن أترك الشرح والبيان للقراء أنفسهم واذا كنت نقلت الكتاب الى العربية نقلاً صادقاً صحيحاً فان معانيه تنساب فى نفس قارئيه من دون احتياج الى شرح ولا رجوع الى بيان ؟

احمد فتحى

القاهرة فى   أكتوبر سنة ١٩٠٩   زغلول

اهداء الكتاب من المؤلف

الى تيوفيل ريبو مدير المجلة الفلسفية وأستاذ علم النفس في المدرسة الفرنساوية

علامة مودة

جوستاف لوبون

مقدمة المؤلف

خصصنا كتابنا السابق للكلام على الحالة النفسية للشعوب والآن نبحث فى الحالة النفسية للجماعات

تتكون روح كل شعب من مجموع صفات وخلال تتولد فى أفراده بالتوارث لكن اذا اجتمع عدد من أولئك الأفراد للقيام بعمل من الأعمال تولدت عن اجتماعهم هذا أحوال نفسية جديدة ترتكز على أحوال الشعب وقد تختلف عنها فى كثير من الأوقات اختلافاً كبيراً

كان للجماعات المنظمة على الدوام تأثير كبير فى حياة الأمم إلاّ إن هذا التأثير لم يبلغ فى زمن من الأزمان مبلغه فى الزمن الحاضر فقد حلّ فى أيامنا هذه تأثير الجماعات على غير قصد منها محل تأثير الأفراد المقصود لأربابه بالطبيعة وأصبح من أخص صفات الحياة الحاضرة

وإنى أحاول البحث فى موضوع الجماعات على صعوبته بالوسائل العلمية المحضة أعنى اننى أريد أن أتبع فيه نسقاً مؤسساً على قواعد العلم غير ملتفت الى الآراء والنظريات والمذاهب

الجارية مجرى الأمور المسلم بها لأنى أرى أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لاقتناص بعض شوارد الحقيقة

ولا سيما اذا كان الموضوع مما يشغل الافكار مثل موضوعنا

فالعالم الذى يرمى ببحثه الى تقرير أمر من الأمور لا يهتم بما عسى أن يصطدم مع هذا التقرير من المنافع والمصالح — قال عنى أحد كبار المفكرين وهو موسيو (جويليـه دالفيالا) فى كتاب نشرناه حديثاً إنى كثيراً ما خالفت فى نتائج ابحاثى ما اتفق عليـه الباحثون من أرباب المذاهب العصرية لأنى لست تابعاً لواحد منها وإنى لأرجو أن يكون حظ كتابى هذا من تلك الملاحظة حظ سابقيه إذ الانضمام الى مذهب يقتضى التحيز اليه والتزام ما فيه من الأوهام

على إنى أرى من الواجب أن أوضح للقراء السبب فى اننى أستخلص من بحثى نتائج تخالف التى يظهر بادئ بدء انهـا نتائجه اللازمة كتقريرى مثلا انحطاط القوة المفكرة عند الجماعات حتى التى تتألف من نوابغ أهل الفضـل وذهابى مع ذلك الى انه من الخطر المساس بها أو العبث بنظامها

ذلك لأن اطالة التأمل فى حوادث التاريخ دلتنى دائماً ان المجتمعات الانسانيـة عويصة التركيب كالأفراد سواء بسواء

فليس فى يدنا أن نحولها فجأة من حال الى حال نعم يتفق أن تحدث الطبيعة تغييراً كلياً فجائياً إلاّ إن ذلك لا يكون تابعاً لارادتنا أبداً لذلك كان حب بعضهم للاصلاحات الكلية من أسوأ المؤثرات فى الأمم معها دلّ النظر على حسنها لأنها لا تكون مفيدة إلاّ اذا كان فى الامكان تغيير روح الأمة تغييراً فجائياً والزمان وحده هو صاحب هـذا السلطان والذى يحكم الناس مجتمعين انما هى الأفكار والمشاعر والعادات وكلها أمور موجودة فينا وحينئذ ليست القوانين والنظامات إلاّ صورة من صور النفس العامة التى لنا وممثلة حاجاتها واذا كانت القوانين والنظامات صادرة عن النفس فهى لن تستطيع تغييرها

واعلم انه لا يجوز فصل البحث فى الأحوال الاجتماعية عن البحث فى الأمم التى ظهرت تلك الأحوال فيها لأنه ان صح نظراً ان لهذه الأحوال قيمة مطلقة فمن المحقق ان قيمتها عملا نسبية دائماً

لذلك ينبغى عند البحث فى حال من أحوال الاجتماع أن ينظر اليها من جهتين مختلفتين تماماً وحينئذ ينجلى للباحث ان تعاليم النظر المحض تخالف غالباً تعاليم النظر العملى وليس من النتائج حتى نتائج الابحاث الطبيعية ما يشـذ عن هذه القاعدة

إلاّ يسيراً انظر الى مكعب أو دائرة تجدها من حيث الحقيقة المطلقة صوراً حسابية ثابتة لها صيغ تضبطها ضبطاً دقيقاً . لكنها قد تحضر امام العين بصور مختلفة فقد ترى المكعب هرماً أو مربعاً وقد ترى الدائرة قطعاً ناقصاً أو خطاً مستقيماً ويجب الاهتمام بهذه الصور الصورية أكثر من الاهتمام بتلك الصور الحقيقية لانها هى التى تتراءى أمامنا وهى التى يمكن للرسم أو لآلة التصوير أن تنقلها لنا ومن هنا جاز القول بأن الصورى حقيقى أكثر من الحقيقى فى بعض الاحوال لان تشخيص الاشكال الهندسية بصورها الحسابية المنضبطة عبارة عن تشويه طبيعتها وجعلها تخفى على الناظرين فلو فرضنا عالماً لا يسعهم إلا رسم الاشياء أو نقلها بآلة التصوير من دون أن يتمكنوا من لمسها لتعسر عليهم استحضار صورتها الحقيقية فى أذهانهم على ان معرفة تلك الصورة الحقيقية من العدد القليل أعنى العلماء لا يفيد إلا فائدة صغيرة جداً

إذن وجب على الحكيم الذى يبحث فى الاحوال الاجتماعية أن لا يغفل عما لهذه الاحوال من القيمة العملية بجانب قيمتها العلمية وان الاولى هى التى لها شئ من الاهمية فى تطور المدنيات وملاحظة ذلك تقتضى الحيطة والحذر من الوقوف عند ما قد يسوق اليه الاستنتاج المنطق بادئ بدء

وهناك أسباب أخرى تدعو الى هذا الحذر منها ان الاحوال الاجتماعية عويصة مشتبكة يتعذر على الباحث أن يحيط بها كلها وأن يتعرف ما لها من التأثير وما بينها من التفاعل ومنها أن وراء الحوادث الظاهرة مؤثرات خافية كثيرة جداً اذ يظهر ان الاولى ليست الا نتيجة عمل عظيم يقع على غير علم منا وهو فى الغالب فوق بحثنا فمثل الحوادث الظاهرة مثل الامواج المتلاطمة التى تترجم فوق سطح البحر عما هو واقع فى جوفه من الاضطرابات التى خفيت عنا ونحن اذا نظرنا الى الجماعات نراها تأتى من الاعمال بما يدل على انحطاط مداركها انحطاطاً كلياً غير ان لها أعمالا أخرى يظهر انها منقادة فيها بقوة خفية سماها الاقدمون قدراً أو طبيعة أو يداً صمدانية وسماها أهل هذا الزمان (صوت من فى القبور) وعلى كل حال لا يسعنا أن ننكر ما لها من القوة وان جهلنا كنهها وكثيراً ما يظهر ان فى باطن الأمم قوى كامنة ترشدها وتهديها انك لا تجد شيئاً أكثر تعقيداً ولا أدق ترتيباً وأجمل خلقاً من اللغة وما مصدر هذا الشيء الغريب فى نظامه العجيب فى أسلوبه إلا روح الجماعات تلك الروح اللاشاعرة وأعلم المجامع العلمية وأرقى النحويين انما يجهدون النفس فى تدوين قواعد اللغات وهم لا شك عاجزون عن خلقها كذلك لسنا على يقين من ان الافكار السامية التى يحدثها النابغون من فطاحل القوم انما هى

عملهم خاصة نعم هم الذين أوجدوها . ولكن لاينبغى أن ننسى ان ذرات التراب التى تراكمت فصارت منبتاً لتلك الافكار انما كونتها روح الجماعات التى وجد أولئك النابغون فيها

تتجرد الجماعات دائمًا عن الشعور بعملها وقد يكون هـذا هو السر فى قوتها على انا نشاهد فى الطبيعة ان الذوات الخاضعة لمجرد الالهام تأتى بأعمال دقيقة يحار الانسـان فى معرفة جليل صنعها ذلك ان العقل جديد فى الوجود الانسانى وفيه نقص كبير فلا قدرة لنا به على معرفة قوانين الأفعال اللاشعورية فما بالك ان حاولنا وضع غيرها فى مكانها ان نصيب اللاشعور فى جميع أعمال الانسان عظيم وافر ونصيب العقل فيها صغير للغاية والأول يعمل ويؤثر كقوة لاتزال معرفتها غائبة عنا

وعليـه اذا أردنا أن نقف عند الحدود الضيقة المأمونة فى معرفة الاشـياء من طريق العقل ولا نهيم فى أودية التخمينات المبهمة والفرضيات العقيمة لزمنا أن نقتصر على تقرير الحوادث التى تقع تحت حواسنا وكل استنتاج مبنى على هـذه المشاهدات بعد ذلك يكون تسرعاً فى غالب الاحيان لانه يوجد خلف الحوادث التى نراها جيـداً حوادث لانراها الا رؤيا ناقصة وقد يكون وراء هذه غيرها مما لانراه أصلا

تمهيد

﴿ زمن الجوع ﴾

تطور أهل الوقت الحالى ـ فى أن تغييرات المدنيـة العظيمة نتيجة أفكار الامم ـ اعتقاد أهل هذا العصر بقوة الجماعات ـ فى ان هذا الاعتقاد يحول الدول عن سياستها التقليدية ـ كيف تسود سلطة طبقات الأمـة وكيف تجرى تلك السـلطة ـ النتيجة اللازمة لسلطة الجـماعات ـ فى أن الجماعات لاتستطيع الا الهدم ـ فى انها هى التى تجهز على المدنية التى وهن بناؤها ـ فى الجهل العام بأحوال الجماعات النفسية ـ أهمية الوقوف على تلك الاحوال عند الشارع والسياسى

يخال الناظر فى أحوال هذا الـكون ان الانقلابات العظيمة التى تتقدم تطور المدنية فى الأمم مثل سـقوط الدولة الرومانية وقيام الدولة العربية ناشئة عن تطور سياسى عظيم كغارة الأمم بعضها على بعض أو سقوط الأسر الحاكمة وهكذا لـكن بعد انعام النظر فى هذه الحوادث يتبين أن وراء أسبابها الظاهرة فى الغالب سبباً حقيقياً هو التغير الـكلى فى أفكار تلك الأمم فليست التقلبات السياسـية الحقيقية الـكبرى هى التى تدهش البـاحثين بعظمها وعنفها وانما الانقـلاب الصحيح الجـدير بالاعتبار الذى يؤدى الى تغيير حال الامم المدنية يحصل فى الافـكار والتصورات

والمعتقدات والحوادث العظيمة الخالدة فى بطون التواريخ ليست الا آثاراً ظاهرة لتغير خفى فى أفكار الناس واذا كانت تلك الانقلابات العظيمة نادرة الحدوث فذلك راجع الى أن أشد أخلاق الأمم رسوخا عندها هو التراث الفكرى الذى ورثته عن آبائها .

وأحرج الازمان فى تطور الفكر الانسانى زماننا هذا ولهذا التطور عاملان أصليان .

الاول تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التى تتكون منها عناصر المدنية الحاضرة .

والثانى قيام أحوال جديدة ونشوء أفكار جديدة في الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية

ولما كان تهدم الافكار القديمة لم يتم فلم تزل قوتها وكانت الأفكار التى ستحل محلها فى دور تكونها كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى

ومن المتعسر أن نتكهن بما قد يتولد يوماً من الأيام من هذا الوقت المشوش كما اننا لانعرف حتى الآن على أى الافكار الاساسية والمبادئ الأولية يقوم بناء الأمم التى تخلفنا ولكن الذى نراه منذ الساعة انه سيكون امام تلك الأمم قوة عظيمة

لابد لها من الاعتداد بها لانها أكبر قوة وجدت أريد بها قوة الجماعات تلك القوة التى قامت حتى الآن وحدها على أطلال الافكار البالية التى كان الناس يعتقدونها حقائق وماتت وعاشت بعد أن حطمت الثورات المختلفة كل سلطة كانت تتحكم فى الناس وهى القوة التي يظهر لنا أن مصيرها ابتلاع ما عداها فى القريب العاجل ألا ترى أن معتقداتنا القديمة أخذت تهتز من وهن آساسها وان أساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتحطم وان سلطة الجماعات هى وحدها التي لايهددها طارئ بل هى تعظم وتنمو وعليه فالدور الذى نحن قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة

كان المؤثر فى الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة التقليدية للدول ومنازعات ملوكها ولم يكن لرأى الجموع وزن يذكر بل لم يكن له قيمة أصلا فى الغالب — أما الآن فالسياسة التقليدية هى التي أصبحت لا وزن لها ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك بل صارت الغلبة لصوت الجماعات فهو الذى يرسم للملوك خطتهم وهو الذى يجتهد الملوك فى الاصغاء اليه وأمسى مصير الامم راجعاً الى ما تحمله روح تلك الجماعات لا الى ما يراه أصحاب مشورة الأمراء

لجلوس طبقات الأمم على عرش السياسة أعنى تطور تلك الطبقات حتى صارت قادة لدولها هو من أخص مميزات زمن التحول الذى نحن فيه وليس حق الانتخاب العام هو الدليل الصحيح على هذا التطور لان هذا الحق بقى ضعيف الأثر زمناً طويلا وكان فى مبدإ أمره سهل القياد وانما تولدت سلطة الجماعات رويداً رويداً بانتشار بعض الافكار التى رسخت فى الاذهان أولا وبتدرج الافراد فى تكوين الجماعات للوصول الى تحقيق تلك النظريات ثانياً فالاجتماع هو الذى ولد فى الجماعات قوة ادراك منافعها ومع كونه ليس ادرا كا تاماً فهو ثابت متين والاجتماع هو الذى جعلها تشعر بما لها من القوة والسلطان وهذا أصل تأسيس الجميات (السنديكات) التى تخضع أمامها السلطات واحدة بعد الأخرى وغرف التجارة (البورصات) التى تطمح الى السيطرة على العمل وأجور العمال وان خالفت فى حكمها قواعد الاقتصاد وأصول تدبير الثروة العامة

والجماعات هى التى تبعث اليوم الى المجالس النيابية لدى الحكومة بوكلاء تجردهم من كل حركة شخصية وكل استقلال فلا يكون لهم من الرأى الا ما رأته اللجان التى انتخبتهم

أخذت طلبات الجماعات الآن ترقى فى مراتب الوضوح

وهى لاترمى الى أقل من قلب الهيئة الاجتماعيــة الحاضرة رأساً على عقب لترجع بها الى حالة الاشــتراك الأولى التي كانت عليها العشائر قبل بزوغ شمس المدنية — تطلب الجماعات تحديد ساعات العمل ونزع ملـكية المعادن والسكك الحديدية والمعامل والمصانع والاطيــان وتطلب توزيع الثمرات بين جميع النــاس على السواء واحلال الطبقات الوضيعة محل الطبقات الرفيعة وغير ذلك

الجماعات أقدر على العمل منهــا على التفكير وقد أصبحت بنظامها الحاضر ذات قوة كبرى وعما قريب يكون للمذاهب التى نراها اليوم فى دور التكون من السلطان العظيم على الافكار ما للمذاهب التى رسخت أصولهــا فى الاعتقادات أعنى ســلطاناً مستبداً لا تأثير فوق تأثيره فلا تعود تحتمل البحث أو الجــدال وحينئذ يقوم حق الجماعات المقدس مقام حق الملوك الأقدسين

ولقد استولى الهلع على قلوب الـكتاب الذين لهم منزلة لدى الطبقات الوســطى فى الأمم وهم الذين يمثلون أكثر من غـيرهم أفكارها الضيقة ونظرها القصير ويأسها غـير المبنى على التأمل الصحيح وحب الذات البالغ غايته فخشوا عاقبة ذلك الســلطان الجديد الذى أخذ ينمو ويعظم ومالوا الى مقاومة ما استحوذ على الأفكار من الاضطراب فولوا وجوههم قبل الـكنيسة

مسـتصرخين بسلطانها الأدبى وتأثيرها الروحى بعـد أن بالغوا
فى احتقارها وغالوا فى اهمال جانبها ونادوا بافلاس العلم فى طريق
تهذيب النفوس فهم يرجعون من روما تائبين منيبين يدعوننا الى
الرجوع للتمسك بحقائق الوحى والتنزيل وفات أولئك المتدينين
من جديد ان الوقت قد فات — واذا صح أن الفيض الالهى أخذ
من نفوسهم فانه لن ينال من نفوس جماعات لا تعتـقد كثيراً بما
يقلق ضمائر اولئك الزهاد فلم تعد ترغب فى الأرباب التى رغبوا
هم عنها بالأمس وكان لهم نصيب فى تحطيمها وليس فى طاقة البشر
ولا مما تتعلق به القدرة الالهيـة جعل مياه الأنهـار تصب فى
ينابيعها

ما أفلس العلم ولا ذنب له فى فوضى الافـكار التى انتشرت
فى هذا الزمان ولا فى سلطة الجماعات التى تنمو وسط تلك الفوضى
انما العـلم وعدنا كشف الحقيقة أو على الأقل بيان النسب التى
يربط الامور بعضها ببعض مما تقدر على ادراكه لـكنه ما وعدنا
السلام ولا السعادة أبداً والعلم جماد بالنسبة لمشاعرنا وأصم لا يصل
اليه صراخنا وانما نحن الذين يجب عليهم أن يحمـلوا أنفسهم على
الاتفاق معه إذ لا شىء يقدر أن يعيد لنا تلك الاوهام التى فرّت
امام نوره

توجد علامات عامة ظاهرة فى جميع الأمم تدل على سرعة نمو سلطان الجماعات نمواً لا رجاء فى وقوفه آجلا ونحن خاضعون لحكمه حاملون كل ما أنتج بالقهر عنا فكل قول فيه باطل لا فائدة منه ومن الجائز أن تولى الجماعات قياد الأمم يكون خاتمة أدوار مدنية الغرب فيرجع إلى الانغماس فى أودية الفوضى التى يخال انه لابدّ لكل أمة من اجتيازها قبل الوصول الى دور الحضارة والرقى ولكن أين السبيل الى منع ما هو كائن

ينحصر الاثر الواضح لعمل الجماعات حتى الآن فى هدم صروح المدنية فالتاريخ يدلنا على انه كلما وهنت القوى الأدبية التى يقوم عليها بناء تقدم أمة من الأمم كانت خاتمة الانحلال على يد تلك الجماعات الوحشية اللاشعورية التى سميت بحق متبربرة أما الذين أقاموا صروح المدنية وشيدوا أركان الحضارة فهم نفر امتازوا بسمو المدارك وبعد النظر ولكننا لم نر حتى الآن للجماعات أثراً مثل هذا فهى انما تقدر على الهدم والتحطيم وزمان حكمها زمان بربرية على الدوام لان المدنية لاتقوم الا على مبادىء مقررة ونظام ثابت وانتقال من العمل بمقتضى الغريزة الى الاهتداء بنور العقل والبصر بالمستقبل ومرتبة راقية من العلم والتهذيب وتلك وسائل برهنت الجماعات على انها غير أهل لتحقيقها اذا

تركت وشأنها — ومثل الجماعات في قوتها الهادمة مثل المكروبات التي تعجل بانحلال الاجسام الضعيفة وتساعد على تحلل الاجساد الميتة فاذا نخرت عظام مدنية تولت الجماعات نقض بنائها هنالك يظهر شأنها الأول ويخيل لنا بادىء بدء أن العامل في حوادث التاريخ هو كثرة العدد

إنا لنخشى أن يكون هذا أيضاً مصير مدنيتنا لكن ذلك الذى لا نعرف منه شيئاً حتى الآن

وكيفما كان الحال فلا مندوحة لنا عن الخضوع لحكم الجماعات لأن أيدياً طائشة أزالت بالتدريج جميع الحواجز التى كانت تمنع من طغيانها

كثر الكلام على الجماعات ونحن لا نعرف من حالها الا يسيراً لأن المشتغلين بعلوم النفس عاشوا بمعزل عنها فجهلوا أمرها على الدوام وإنما اشتغلوا بها في الأيام الاخيرة من جهة ما قد ترتكب من الجرائم والآثام نعم توجد جماعات شريرة إلا أن هناك أيضا جماعات فاضلة وجماعات ذات شجاعة وهكذا فالنظر اليها من حيث الشر وحده نظر للشيء من جهة واحدة ولا يتصل الباحث لمعرفة إدراك الجماعات ببحثه فى الجرائم التى قد تصدر عنها كما انه لا يتوصل الى معرفة إدراك الفرد بالبحث في عيوبه خاصة.

ومع ذلك فان الذين سادوا على العالم وساسوا الأمم والممالك ممن شرعوا الأديان وأسسوا الدول ورسل المذاهب كلها وأقطاب السياسة حتى رؤساء العشائر الصغيرة كانوا دائماً من علماء النفس وهم لا يشعرون فكانوا يعرفون روح الجماعات معرفة فطرية وكانت تلك المعرفة صادقة في أغلب الاحايين ومعرفتهم لذلك جيداً هى التى مكنتهم من السيادة عليها كان نابليون واسع الخبرة بأحوال الجماعات النفسية فى البلاد التى انبسطت يده عليها ولكنه جهل غالباً روح الجماعات فى شعوب أخر كذلك كان شأن أكبر مستشاريه فانهم أيضاً لم يفقهوا حقيقة حال الجماعات الاجنبية عن أمتهم فقد كتب له (تايلران) ان اسبانيا تلاقى جيوشه لقاء المنجدين فلما زحفت اليهم استقبلتهم كما تستقبل الوحوش الكاسرة ولو انه كان على شيء من العلم بما ورثت تلك الأمة من الأميال لسهل عليه معرفة هذا الاستقبال . ذلك هو السبب فى أن نابليون قام فى بلاد الاسبان وفى بلاد الروسيا على الأخص بحروب كانت عاقبتها التعجيل بسقوطه

معرفة روح الجماعات أصبحت اليوم آخر ملجأ يأوى اليه السياسى العظيم لا لأجل أن يحكمها فقد صار ذلك الآن صعباً كثيراً بل ليخفف عنه شدة تأثيرها

واذا أردنا أن نعرف ضعف تأثير القوانين والنظامات في الجماعات فانما السبيل الى ذلك تدقيق البحث لمعرفة روحها والوقوف على أحوالها النفسية وبذلك نفقه أيضاً انه لا قدرة لها على تكوين رأي أو التفكير في شيء خارج عن الدائرة التى رسمت لها وانها لا تقاد بقواعد العدل النظرية بل بالبحث عما من شأنه التأثير فيها واختلابها فلو أراد وازع فرض ضريبة جديدة وجب عليه أن لا يختار التي هى أقرب للعدل من حيث قواعد الاقتصاد في ذاتها فربما كان أبعدها عن العدل أكثرها قبولا بالفعل عند الناس فان كانت هذه الاخيرة أيضاً أقل وضوحاً وأخف حملا في الظاهر كان ذلك أدعى إلى قبولها لهذا كانت الضريبة المقررة مقبولة لدي الجمهور كيفما كانت باهظة لانهم يؤدونها تدريجاً على أقسام صغيرة عند شراء حاجاتهم اليومية فهى لاتضيق عليهم فيما ألفوه ولا تؤثر فيهم لذلك تأثيراً غير محمود فاذا بدلت هذه الضريبة بضريبة الايراد أو الاجور بحيث يدفعونها مرة واحدة علت أصوات الشكوى من كل جانب ولو كانت هذه الضريبة أخف من تلك عشر مرات ذلك لان مبلغاً ذا قيمة ظاهرة حل محل فلس يدفع بالتدريج يوماً بعد يوم ووجب أداؤه دفعة واحدة وفي ذلك من موجبات الضجر

ما لا يخفى ولو انهم إقتصدوه درهماً إلى درهم لبان لهم ضعفه وما شعروا بثقله لكن هذه وسيلة إقتصادية تقتضي شيئاً من التبصر وذلك ما لا تقدر الجماعات عليه

المثال الذي قدمناه من أسهل الامثال ومعرفة صحته ميسورة للكافة وهو لم يغب عن متفرس مثل نابليون لكن المشرعين الذين جهلوا حياة الجماعات لا يدركونه لان التجارب لما تعلمهم ان الناس لا يسيرون أبداً على مقتضى قواعد العقل وحده

ومن السهل الاكثار من الامثلة التي ينطبق عليها علم روح الاجتماع فمعرفة ذلك العلم توضح وضوحاً تاماً عدداً كبيراً من الحوادث التاريخية والاجتماعية يستحيل إدراك حقيقتها بدونه وسأبين في حينه ان السبب في كون أكبر مؤرخي الأعصر الحاضرة وأعني به المسيو (تاين) لم يفقه تماماً بعض حوادث الثورة الفرنسية انما هو لأنه لم يشتغل بالبحث في روح الجماعات بل استرشد في الكلام على هذا القسم العويص من التاريخ بطريقة الطبيعيين التي هي تصوير الحوادث ووضعها غير ان القوى الادبية ليست مندرجة فيما يبحث فيه الطبيعيون إلا شذوذاً مع أن تلك القوى هي التى تقوم عليها دعائم التاريخ

معرفة أحوال الجماعات النفسية ضرورية سواء أردنا من

ذلك جانبها العملى أو الرغبة فى مجرد الوقوف على ما هو كائن فن المفيد استكناه أسباب الافعال التي تصدر عن الانسان كما انه من المفيد معرفة حقيقة المعدن أو الفراس

سيكون كلامنا فى روح الاجتماع موجزاً بمعنى انه سيكون تلخيصاً لمباحثنا فلا يطابن القارئ منه إلا بعض أفكار ترشد إلى غيرها ولغيرنا أن يوغل في الموضوع أما نحن فانما نخططه على أرض لا تزال عذراء [1]

---

(١) قلت ان القليل من العلماء الذين بحثوا فى علم روح الجماعات قصروا بحثهم على الجهة الجنائية منها أما أنا فلا أخص هذه الجهة إلا فصلا صغيراً من هذا الكتاب لذلك ارجع القراء إلى مباحث موسيو (تارد) ورسالة موسيو (سيجيل) التى سماها (الجماعات الجارمة) وتشتمل تلك الرسالة بجانب مباحث مؤلفها الخاصة به على ذكر مشاهدات جمعها من مؤلفات غيره مما تفيد مطالعته علماء روح الاجتماع على ان ما استخلصته أنا من حيث قوى الجماعات العقلية وقابليتها للشر والجريمة تخالف ما ذهب اليه هذان العالمان على خط مستقيم .

وسأنشر عما قريب كتاباً أتكلم فيه على روح الاشتراكية وهنالك تتبين أهمية الكثير من قواعد روح الجماعات على ان تلك القواعد تنطبق على موضوعات أخر تخالف الموضوع الذى نحن بصدده

ومن تلك التطبيقات ما شاهده موسيو (جيفيرت) مدير المتحف الموسيقى بمدينة بروكسل فى رسالة كتبها على الموسيقى وسماها

اسما جديراً بمسماه وهو (فن الجماعات) وبعث إلي بنسخة منها مع كتاب يقول فيه — ان كتابيك هما اللذان ساعدانى على مسألة كنت أرى قبل الآن حلها مستحيلا وهى قابلية الجماعات قابلية عجيبة لذوق قطعة موسيقية اذا قام بتمثيلها منفذون يقودهم رئيس ذو حماسة قوية سواء كانت تلك القطعة جديدة أو قديمة وطنية أو أجنبية بسيطة أو مركبة وقد ذكر موسيو جيفيرت فى رسالته ان القطعة الموسيقية قد لا يذوقها أشهر الموسيقيين الذين يطالعونها بسكينة فى كسر بيتهم ويدركها لاول وهلة سامعون ليس لهم أدنى المام بقواعد الفن وأصوله

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الأول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

ما الجماعة عند علماء النفس — فى ان مجرد اجتماع عدد كبير من الافراد لا يكفى لتكوين جماعة — فى اتحاد وجهة أفكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم — فى ان الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور — انزواء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية — انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغيراً كلياً — فى ان ذلك الاحساس المتغير يكون أحسن أو أردأ منه فى الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم — سهولة اندفاع الجماعة الى الشجاعة والى الشر

الجماعات بالمعنى المتعارف اللفيف من القوم مطلقاً وان اختلفوا جنسياً وحرفة ذكوراً كانوا أو أناثاً وعلى أى نحو اجتمعوا إما فى علم النفس فلها معنى آخر ففى بعض الظروف يتولد فى الجمع من

الناس صفات تخالف كثيراً صفات الافراد المؤلف هو منها حيث تختفى الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الافراد نحو صوب واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة إلاَّ انها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح وحينئذ يصير ذلك الجمع لفيفاً مخصوصاً لم أجد لتسميته كلمة أليق من لفظ الجماعة المنظمة أو الجماعة النفسية فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة وبذلك يصير خاضعاً لناموس الوحدة الفكرية الذى تخضع الجماعات لحكمه

ووضح مما تقدم أن مجرد اجتماع أفراد كثيرين اتفاقاً لا يكسبهم صفة الجماعة المنظمة وأن ألف نفس اجتمعوا عرضاً فى رحبة واسعة لغير قصد معين لا يكونون جماعة عند علماء النفس بل لابد فى توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة سنوضحها فيما بعد

ثم ان اختفاء الذات الشاعرة واتجاه المشاعر والافكار نحو غرض واحد وهما الصفتان الأوليان للجماعة ابان انتظامها لا تستلزمان دائماً وجود أشخاص عديدين فى مكان واحد بل قد تتوفر صفة الجماعة النفسية لآلاف من الناس وهم متفرقون اذا تأثرت نفوسهم تأثراً شديداً بحادث جلل كفاجعة عامة فى الأمة فان اجتمعوا اتفاقاً وهم تحت ذلك التأثير لبست أعمالهم ثوب أعمال

الجماعات لساعتها وقد تتألف الجماعة من بضعة عشر فرداً وقد لا تتوفر هذه الصفة لمئات اجتمعوا اتفاقاً وقد تصير الأمة كلها جماعة من دون أن يكون هناك اجتماع ظاهر اذا وقع عليها كلها أثر واحد

ومتى تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة مؤقتة لكنها ظاهرة يمكن تحديدها ويقوم بجانب تلك الصفات العامة صفات خاصة تختلف باختلاف العناصر التى تتألف منها الجماعة وربما أثرت هذه الصفات فيما لها من القوة المدركة وعلى هذا يمكن تقسيم الجماعات النفسية الى أنواع وسنوضح عند الكلام على هذا التقسيم انه يوجد للجماعات التى تتألف من عناصر مختلفة والجماعة التى تتألف من عناصر متشابهة (كالعشيرة والطبقة والطائفة) صفات عامة جامعة وان لكل قسم مميزات خاصة به

وقبل الكلام على أنواع الجماعات ينبغى أن نأتى على بيان الصفات العامة لنكون حذونا حذو الطبيعيين الذين يذكرون أولا الخواص التى تصدق على جميع أفراد كل فصيلة قبل أن يشرحوا الخواص التى تمتاز بها الاجناس والانواع المندرجة فى تلك الفصيلة

ليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحاً دقيقاً لأن نظامها يختلف أولا باختلاف الشعب وتركيب الجميات وثانياً باختلاف طبيعة المؤثرات التى تقع على الجميات المذكورة غير ان هذه الصعوبة حاصلة عند البحث فى نفس الفرد الواحد لأن الفرد لا يحي حياة واحدة لا تتغير إلا فى القصص والروايات وغاية ما فى الأمر ان وحدة البيئة تحدث وحدة الخلق فى الظاهر ليس إلا وقد بينت فى غير هذا المكان ان فى جميع القوى المدركة استمداداً لتوليد أخلاق جديدة تظهر اذا تغيرت البيئة تغيراً فجائياً هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنساوية أفراداً كانوا كالوحوش الضارية وقد كانوا فى زمن السلم قضاة من ذوى الفضل أو موثقين أولى سكينة هادئين فلما سكنت العاصفة عادوا الى سكينتهم وكان لنابوليون منهم أعوان مخلصون

ولما كان لا يتيسر لنا أن نشرح هنا نظام الجماعات على اختلاف درجاته وجب أن يكون بحثنا فى التى كمل نظامها فنعرف حينئذ ما قد يؤول اليه أمر الجماعات لا ما هى عليه دائماً خصوصاً اذا لوحظ ان الجماعة التى وصل نظامها الى حد الكمال الممكن هى التى تحدث لها صفات خاصة جديدة ترتكز على ما فى مجموعها من الصفات الثابتة التى لعامة الشعب وهى التى تتحد فيها

الارادات وتتجه المشاعر نحو مقصد واحد وهى التي يظهر فيها ذلك الناموس الذي سميته فيما تقدم ناموس الوحدة الفكرية للجماعات

ومن الصفات النفسية ما تشترك فيه الجماعة مع الافراد ومنها ما هو خاص بها دون الفرد وسنبدء بالكلام على هذه الصفات الخاصة لنبين مالها من الاهمية

أهم ما تمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التي يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده وذلك كيفما كان أولئك الافراد وكيفما تباينوا أو اتفقوا في أحوال معيشتهم وفي أعمالهم اليومية وفي أخلاقهم ومداركهم وعلة ذلك مجرد انضمامهم الى بعضهم وصيرورتهم جماعة واحدة ومن الافكار والمشاعر مالا يتولد أو يتحول فيخرج من عالم القوة الى عالم الفعل الا عند الفرد في الجماعة فالجماعة ذات عارضة (مؤقتة) متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض الى أجل كخليات الجسم الحي التي ولدت باتصالها ذاتاً أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها ورغماً عما ذهب اليه هربرت سبنسر ذلك العالم الحكيم المدقق مما ندهش له نقول انه لايوجد بين العناصر التي تتكون

منها الجماعة حد وسط وانما الذي يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة كما يحدث ذلك في الجواهر الـكيماوية الا ترى انك اذا جمعت جوهرين مثل القواعد والاحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين

لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد في الجماعـة وبين الفرد وحيـداً غير انه يصعب الوقوف على السبب في ذلك ولـكي يقر بنا البحث من معرفة هذه الاسباب على وجه ما ينبغي أن لا نغفل عن القاعدة الآتية التي شاهدها علماء النفس في العصر الحاضر وهى أن للحوادث اللاشعورية فى حركة الادراك الشأن الأول كما انها كـذلك في الحياة الجسمانية وأن حياة النفس الشاعرة ليست الا شيئاً يسيراً بجانب حياتها اللاشعورية حتى ان أدق الباحثين تأملا وأبعد المحققين نظراً لا يسعه أن يقف الا على قليل من البواعث اللاشعورية التى تدفعه الى الحركة بل أن حركاتنا المقصودة لنا أو الشعورية مسببة عن مجموع أسباب لاشعوري متولد على الأخص من تأثير الوراثة فينا وهذا المجموع يشتمل على بقايا الاباء والجـدود التي لا يحصيها العد ومنها تتألف روح الشعب أو الأمة التي نحن منها فوراء أسباب أعمالنا التي نقصدها أسباب خفية لا ارادة لنا فيها ووراء هذه أسباب كثيرة أخر

أشد خفاء وأكثر غموضاً بدليل اننا لانفقه شيئاً منها وجل أفعالنا اليومية صادر عن أسباب خفية تفوتنا معرفتها

يتشابه أفراد الشعب بالعناصر اللاشعورية التي تكوّن روحه العامة وهم انما يفترقون بالخواص الشعورية التي هي نتيجة التربية وبالاخص نتيجة وراثة استثنائية وأشد الناس افتراقاً من حيث مداركهم يتشابهون بالوجدانات والشهوات والمشاعر وأعظم الرجال لايتفاوتون عن العامة فى الامور التي مرجعها الشعور كالدين والسياسة والآداب والميل والنفور وهكذا الا نادراً فقد يكون بين الرياضي الكبير وبين صانع حذائه بُعد ما بين السماء والأرض من حيث العقل والذكاء ولكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم فى الغالب أو هو ضعيف للغاية

هذه الصفات العامة فى الطباع المحكومة باللاشعورية الموجودة في جميع أفراد كل أمة بدرجة واحدة تقريباً هى التي لها المقام الأول في حركة الجماعات فتختفى مقدرة الأفراد العقلية فى روح الجماعة وتنزوى بذلك شخصيتهم وبعبارة أخرى تبتلع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغايرة وتسود الصفات اللاشعورية

ولكون الجماعات انما تعمل متأثرة بتلك الصفات الاعتيادية يتبين لنا السر في عدم قدرتها أبداً على الاتيان بأعمال تقتضي فكراً

عاليا وعقلا رجيحاً حتى انك لاتجد فرقاً كبيراً فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوى الـكفاآت المختلفة وما يقرره جمع كله من البلداء في موضوع المنفعة العامة لانهم لايمكنهم أن يشتركوا فى هذا العمل الا بالصفات العادية التي هى لـكل الناس فالذى يغلب فى الجماعات انما هى البلاهة لا الفطنة وما كل الناس بأعقل من (فولتير) كما يقولون غالباً بل الواقع أن فولتير أعقل من كل الناس اذا أردنا بكل الناس الجماعات

لـكن لو كان كل فرد في الجماعات لا يأتي لها الا بما اشترك فيه من الصفات مع غـيره لـكانت النتيجة حداً وسطاً فقط وما تولدت خصال جديدة كما قدمنا فمن أين اذن تأتي تلك الخصال . هذا الذي نبحث فيه الآن

الاسباب التي تولد هذه الصفات الخاصة فى الجماعات دون الافراد كثيرة

الأول أن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال في أمياله مما كان يحجم عنه منفرداً بالضرورة ثم هو لايكبح جماح نفسه لأن الجماعة لاتسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الافراد فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة وهـذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغى

السبب الثانى من الاسباب التى تولد فى الجماعات صفات جديدة وتوحد وجهتها هو العدوى والعدوى من الظواهر التى يسهل بيانها ولكنها ليست مما يتيسر تعليله وهى من فصيلة الحوادث المغناطيسية التى سيأتى الكلام عليها وكل شعور فى الجماعة وكل عمل يصدر عنها فهو معدٍ الى حد أن الفرد يضحى مصلحته الذاتية لمصلحة الجماعة وهذه قابلية مخالفة جداً لطبيعة الانسان فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة الا نادراً

السبب الثالث وهو أهمها مما يولد فى افراد الجماعة صفات خاصة مباينة تمام المباينة لصفات كل واحد منهم على انفراده هو قابلية التأثر التى هى أصل فى العدوى السابق الكلام عليها ولسهولة إدراك هذه الظاهرة يلزمنا أن نذكر هنا بعض اكتشافات جديدة دلّ عليها علم وظائف الاعضاء منها أنه أصبح من الواضح إمكان وضع الشخص بطرق شتى فى حالة يفقد فيها ذاته الشاعرة تماماً فينقاد الى جميع ما يشير به عليه ذلك الذى أذهبها عنه ويرتكب أشد الافعال مباينة لخلقه وعادته وقد دل النظر الدقيق فى أحوال الجماعات ان الفرد متى أمضى زمناً بين جماعة تعمل لا يلبث أن يصير فى حالة خاصة .

تقرب كثيراً من حالة الشخص النائم نوما مغناطيسياً بين يدى المنوم وذلك بتأثير السيالات التى تصل اليه من الجماعة أو باسباب أخر مما لم نقف عليه بعد وحالة الشخص النائم هى تعطيل وظيفة المخ وصيرورته هو مسخراً لحركات مجموعه العصبى اللاشعورية التى يسيرها المنوم كيف يشاء هنالك تنطفئ الذات الشاعرة تماماً وتفقد الارادة ويغيب التمييز وتتجه جميع المشاعر والافكار نحو الغرض الذى رسمه المنوم

تلك أيضاً على التقريب حال الفرد فى الجماعة فانه فيها لا يبقى ذا شعور بافعاله وبينما هو يعدم بعض ملكاته تشتد فيه قوة البعض الآخر اشتداداً كبيراً كما هو الحال بالنسبة للشخص النائم فتراه عند الاشارة يندفع الى الفعل المشار اليه اندفاعاً لا قبل له بمقاومته وهذا الاندفاع هو عند الفرد من الجماعة أشد بكثير منه عند الشخص النائم لان التأثر حاصل للجميع فيشتد بالتفاعل بينهم والذين قويت شخصيتهم فاستعصوا على الانفعال وسط الجماعة قليلون ولا طاقة لهم بمصادمة تيار الجميع بل الذى يقدرون عليه هو تحويل الاندفاع الى غرض آخر كما وقع أحياناً من أن لفظاً سعيداً أو خيالاً يمثل فى الوقت المناسب أمام الجماعة يسدها عن ارتكاب أفظع الاعمال

والخلاصة أن انكماش الذات الشاعرة وتسلط الذات اللاشاعرة واتجاه المشاعر والافكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد والاهبة الى الانتقال فوراً من الافكار التى أشير بها الى الفعل هى الاخلاق الخاصة التى يتخلق بها الفرد فى الجماعة فهو لم يعد هو بل صار آلة لاتحكمها ارادته

ومن أجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنيـة ولعله فى نفسه كان رجلا مثقف العقل مهذب الاخلاق ولـكنه فى الجماعة ساذج تابع للغريزة ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشـدته ، وفيه عنفه وقسوته ، وفيه حماسته وشجاعته وفيه منـه سهولة التأثر بالألفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة ثم فيه الانقياد بذلك الى فعل ما يخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التى اشـتهرت عنـه وبالجملة فان الانسان فى الجماعة أشبه بحبة من رمال تثيرها الريح ماهبت

ذلك هو السر فى أن جماعة المحلفين تصدر قرارات يردها كل من أفرادها اذا عرضت عليه وحده وفى ان المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الاعمال مايرفضه كل عضو من أعضائها بمفرده . كل واحد من رجال الثورة (كونفانسيون) الفرنساوية

كان فرداً متنوراً ذا طباع سليمة فلما صاروا جماعة لم يحجموا عن تقرير أفظع الاعمال حتى أسلموا للاعدام أظهر الناس براءة من الآثام ثم خالفوا منافعهم فتنازلوا عن حق احترام الناس فى ذواتهم وحصداتهم بذلك بعضهم بعضا ليس هذا هو كل مايفترق به الفرد فى الجماعة عن نفسه منفرداً افتراقا كلياً بل انه قبل أن يفقد استقلاله الذاتى تتغير أفكاره ومشاعره تغيراً كلياً فيصير البخيل مسرفا ، والمتردد سريع الاعتقاد ، والتقى شريراً ، والجبان شجاعا ، هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ الشهيرة التنازل عن امتيازاتهم ومن المحقق انه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراده لرفضه رفضاً بتاً

نستنتج مما تقدم ان الجماعة دائماً دون الفرد إدراكا ولكنها من جهة المشاعر والاعمال الناتجة عنها قد تكون خيراً منه أو أردأ على حسب الاحوال والأمر فى ذلك راجع الى الكيفية التى تستفز بها وهذا هو الذى أهمله الكتاب الذين قصروا بحثهم فى الجماعات على جهة الشر منها فاذا صح أن الجماعة شريرة فى كثير من الاوقات فمن الصحيح أيضاً انها شجاعة فى أوقات كثيرة أخر تلك حال الجماعات التى يستفزها قوادها الى التقاتل في نصرة الدين أو تأييد المذهب أو يستحثونها للعمل فى سبيل المجد والفخار فيقودونها بلا

تعب وتغير سلاح لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما فى حروب الصليبيين أو للذود عن حومة الوطن كما وقع فى سنة ١٧٩٣ نعم ذلك الشجاع لايقر بشجاعته ولكنها هى مادة التاريخ فانا لو اقتصرنا على تعداد الاعمال العظيمة التى فعلتها الأمم وهى هادئة مطمئنة ماوجدنا من ذلك إلا يسيراً

الفصل الثانى

مشاعر الجماعات وأخلاقها

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب — الجماعة ألعوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة — البواعث التى تدفع الجماعة الى الفعل قوية جداً تنمحى أمامها المنفعة الخاصة — لاشىء من أفعال الجماعة يصدر عن قصد وروية تأثير الاخلاق القومية فى الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر والتصديق — طاعة الجماعة المؤثرات فى انها تأخذ الخيالات التى تمثل لها حقائق ثابتة — علة اجماع أفراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة فى التساوى بين العالم والبليد فى الجماعة بعض أمثلة للخيالات التى يتأثر بها أفراد الجماعة كلهم — فى استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة — فى ان اتفاق العدد العديد من الشهادات من أردأ الادلة على اثبات أمر معين — ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) فى غلو مشاعر الجماعة وبساطتها — الجماعة لاتعرف الشك ولا التردد وتذهب دائماً الى التطرف — فى أن مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائماً .

(٤) فى ان الجماعة قليلة المسالمة ميالة الى التسلط والآمرة والمحافظة على القديم — فى علة تلك الصفات — فى خنوع الجماعة أمام السلطة القوية — فى ان تزوع الجماعة الى الثورة وقتاًمن الاوقات لا يمنع من كونها محافظة للغاية — فى ان مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والترقى

(٥) فى أخلاق الجماعة — قد تكون أخلاق الجماعة أحط كثيراً من

أخلاق أفرادها وقد تكون أرق منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التي تتأثر بها — علة ذلك وأمثلته — قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع انها هي الداعي الوحيد للفرد في عمله شأن الجماعة في تهذيب الاخلاق

بعد أن أجملنا القول في أهم خواص الجماعات ينبغي أن نأتي عليها بالتفصيل

كثير من الصفات الخاصة بالجماعة كقابلية الاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل وفقدان الادراك وملكة النقد والتطرف في المشاعر وغير ذلك يشاهد أيضاً في الافراد الذين لم يكمل تكوينهم كالمرأة والمتوحش والطفل ولكني لا أذكر هذه المشابهات إلا عرضاً إذ الدليل عليها يخرج عن دائرة هذا الكتاب على أن ذلك غير محتاج اليه لدى من عرف أحوال النفس عند الاقوام الذين لا يزالون على فطرتهم الاولى ثم هو لا يقنع من الالمام له بتلك الاحوال إقناعاً تاماً

ولنشرع في شرح كل صفة من الصفات التي توجد في أغلب الجماعات

١

قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب

قدمنا عند الكلام في صفات الجماعة الاولية أنها منقادة عادة الى العمل من دون أن تشعر بالدافع اليه فتأثير المجموع العصبي

فى أفعالها أكبر جداً من تأثير المخ وهى بذلك تشبه كثيراً الرجل الفطرى وقد تكون الافعال التى تصدر عنها كاملة من حيث التنفيذ الا أن العقل لم يكن رائدها فيها بل ان الفرد فى الجماعة يعمل طوعاً المؤثرات التى تدفعه الى الفعل فالجماعة ألعوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة وحينئذ هى مسخرة للمؤثرات التى تقع عليها ثم قد يقع الرجل منفرداً تحت تلك المؤثرات عينها لكن عقله يرشده الى مضارها فلا ينقاد لحكمها وذلك ما قد يعبر عنه علماء وظائف الاعضاء بأن فى الرجل وحده قدرة يتمكن بها من ضبط أعصابه دون الجماعة اذ ليس لها شىء من ذلك

تتبع الدوافع المختلفة التى تبعث الجماعة الى الفعل طبيعة المؤثرات التى ترجع اليها فتكون رحيمة أو قاسية عليها مسحة الاقدام أو الخمول لكنها تكون على الدوام شديدة فلا تثنيها المنافع الذاتية حتى منفعة حفظ الذات نفسها

ولما كانت أنواع المؤثرات فى الجماعة مختلفة جداً وكانت الجماعة تخضع لها دائماً لزم أن تكون الجماعة متقلبة كذلك وهذا هو السبب فى أنها تنتقل فجأة من أفظع الاعمال الى أكبرها رحمة وكرماً فما أسهل ما تصير الجماعة جلادة ولكن ما أيسر

ماتكون ضحية أيضاً وما سالت الدماء التى اقتضاها تأييد كل عقيدة فى الوجود الا من بطون الجماعات ولسنا فى حاجة الى أن نذهب بعيـداً فى التاريخ لنعلم ما تقدر عليه الجماعات فى هذه السبيل فما ساومت على حياتها فى ثورة ومنذ أعوام قليلة ذاعت شهرة أحد القواد فجأة فى الناس ولو أنه أراد لوجد مائة ألف نفس مستعدة لملاقاة الموت انتصاراً له (١)

وعلى ذلك لايوجد من أفعال الجماعة ما هو صادر عن قصد وروية فهى تنتقل من شعور الى شعور وهى على الدوام خاضعة لتأثير الشعور المستحوذ عليها وقت الفعل مثلها فى ذلك مثل أوراق الشجر تحملها العاصفة وتبددها شذر مذر ثم تسكن فتهبط وسنأتى بأمثلة على تقلبات الجماعة عند الكلام على بعض الجماعات الثورية

وشدة تقلب الجماعة تجعل قيادها صعباً على من يزاوله خصوصاً اذا وقع فى يدها قسط من السلطة العامة ولولا أن مقتضيات

---

(١) يشير المؤلف الى الجنرال بولنجيه أحد رؤساء الجنود الفرنساوية فى العقد التاسع من القرن الماضى حيث أصبح كالنار على علم شهرة وقولا التفت حوله القلوب التفافاً دعاه الى الهرب من جميع الاحتفالات العمومية خيفة الهرج والافتتان به ولولا أنه عاجلته المنية لجدد زمان نابوليون وأتى الفرنساويون تحت أمرته ما لم يكن فى الحسبان

الحياة اليومية تفعل فى الامور كتنظم خفى لتعسر جداً البقاء على الدمقراطية (الحكومات النيابية) الا أنه بقدرماتتطرف الجماعة فى ادارة الشيء تسرع بالعدول عن تلك الارادة فانها لاقدرة لها على الارادة المستمرة كما أنها لا تقدر على اطالة النظر والتفكير

ليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ما تمتاز به الجماعة بل هى مع ذلك كالمجى لا تطيق وجود حائل بينها وما تريد والذى يساعدها على أن لاتعقل الحيلولة ان الكثرة تحدث فيها شعوراً بقوة لاحد لها فتصور المستحيل بعيد عن الفرد فى الجماعة . يشعر الرجل منفرداً بعجزه عن احراق قصر أو سلب حانوت فان دفعه دافع قاوم وامتنع فاذا دخل الجماعة أحس بقوة لم تكن له من قبل وتشجع بكثرة العدد وكفى أن يشار اليه بقتل أو سلب لينساب انسياباً لا يثنيه عنه شيء فان كان في طريقه عقبة اقتحمها بعنف وشدة ولو احتمل تركيبُ الانسان دوامَ الغضب لقلنا أن الحالة الطبيعية للجماعة التى خولفت فى مقصدها هى الغضب الدائم

وليلاحظ أن خصال الشعب الاساسية منضمة دائماً الى صفات الجماعات الخاصة من قابلية الغضب والاندفاع والتقلب وجميع المشاعر القومية التى سنأتى عليها فالاولى هى الاساس الذى ترتكز عليه الثانية ولبيان ذلك نقول ان كل جماعة قابلة للغضب والاندفاع

لكنها تتفاوت فى ذلك كثيراً فالفرق جلي بين جماعة لاتينية وجماعة انكليزية سكسونية وأقرب الحوادث فى تاريخنا يوضح ذلك بأجلى بيان فقد كفى منذ خمس وعشرين حجة تلاوة نبأ برق عن اهانة فرض وقوعها لسفيرنا حتى هاجت الأمة وثارت ثائرتها وتولد من ذلك لساعته حرب ما كان أشد هولها وبعد ذلك ببضع سنين ورد نبأ آخر بانكسار تافه لجيوشنا فى (لانجسون) فقامت القيامة وسقطت الحكومة فى الحال وفى ذلك الزمن عينه انكسرت الحملة الانكليزية امام الخرطوم انكساراً أكبر من هذا بكثير فلم ينزعج له الرأى العام الانكليزى إلا قليلا ولم تتزحزح من أجل ذلك وزارة عن مركزها . كل الجماعات فى كل الأمم كالنساء وأشدها شبهاً بهن الجماعات اللاتينية فمن اعتمد عليها جاز أن يرقى الى الذرى فى وقت قصير لكنه يكون على الدوام مماساً لصخرة زيبان [1] وموقناً انه سيتدهور يوماً من الأيام

٢

قابلية الجماعة للتأثر والتصديق

قلنا فى تعريف الجماعات ان من أخص صفاتها قابليتها الشديدة للتأثر وبينا كيف ان التأثر معدٍ فى كل مجتمع انسانى وفى ذلك

(١) هى صخرة عالية كان يرمى ببعض الجناة من حالقها

ايضاح لسرعة توجه المشاعر كلها نحو غرض محدود

وكيفما ظهرت على الجماعات شارات الهدو والسكون فانها على الدوام فى حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلا فأول مؤثر يبدو تراه يخضعها لحينه بامتداد عدواه الى رؤوس الكل وفى الحال يحصل اتجاه الجميع نحو الغرض المقصود وسواءكان ذلك الغرض احراق قصر أو اتيان عمل كريم فانها تندفع نحوه بسهولة واحدة والأمر انما يتوقف على طبيعة المحرك لاعلى مايرجحه العقل من وجوب امضاء الفعل أو الاحجام عنه كما فى الافراد ولما كانت الجماعة على الدوام علقة فى حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات احساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لاتمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد فهي لاتعرف الغير المعقول فليذكر ذلك القراء ليفقهوا السر فى سرعة انتشار الاقاصيص التى تخرج عن حد المعقول (١)

ثم ان سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد فى اختراع

(١) الذين شهدوا حصار مدينة باريس يعرفون امثلة كثيرة من سرعة تصديق الجماعات بما لايتصوره العقل من ذلك انهم كانوا يرون فى مصباح أوقد فى نافذة احدى المنازل اشارة معطاة للعدو مع ان أقل التفات كان يكفى للاقتناع باستحالة رؤية العدو لضوء ذلك المصباح وهو بعيد عنه بعدة أميال

الاقاصيص التى تنشر بسرعة بين الناس بل لذلك سبب آخر وهو التشويه الذى يعتور الحوادث فى مخيلة المجتمعين اذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها فى خيال الجماعة بلا ابطاء لان الجماعة تفكر بواسطة التخيلات وكل تخيل يجر الى تخيلات ليس بينها وبينه أدنى علاقة معقولة وانا لندرك هذه الحال اذا ذكرنا ماقد يتوارد علينا من الافكار الغريبة لمجرد تخيلنا واقعة من الوقائع والفرق بيننا وبين الجماعة ان العقل يرشدنا الى ما بين هذه التخيلات وبعضها من التنافر والتباين وانه ليس فى قدرتها أن تصل الى مثل هذا التمييز وان كل ما أحدثه خيالها من التشويش تضيفه الى أصل الحادثة فهى لا تفرق بين الشئ وما يرى اليه بل هى تقبل جميع الخيالات التى تعرض لها ولا نسبة فى الغالب بين تلك الخيالات وما وقع تحت الحس أولاً

ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التى تدخلها الجماعة على حادثة شاهدتها وتنوع تلك الصور لان أمزجة الافراد الذين تتكون هى منهم مختلفة متباينة بالضرورة لكن المشاهد غير ذلك والتشويش واحد عند الكل بعامل العدوى لان أول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة التى تنتشر منها العدوى الى البقية فقبل أن يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس

كان بالطبع قد تخيله أحدهم أولا[1] فما لبث التأثر والعدوى أن مثلاه للبقية جسما مرئياً .

هكذا وقعت جميع التخيلات الاجماعية الكثيرة التى رواها التاريخ وعليها كلها مسحة الحقيقه لمشاهدتها من الالوف المؤلفة من الناس

ولا ينبغى فى رد ما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل الراجح والذكاء الوافر لانه لا تأثير لتلك الصفة فى موضوعنا إذ العالم والجاهل سواء فى عدم القدرة على النظر والتمييز ما داموا في الجماعة ورب معترض يقول ان تلك سفسطة لأن الواقع غير ذلك الا أن بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية ولا يكفى لهذا العمل عدة مجلدات غير أنى لا أريد أن أترك القارئ أمام قضايا لا دليل عليها ولذلك سآتى ببعض الحوادث أنقلها بلا انتقاء من بين ألوف الحوادث التى يمكن سردها

وأبدأ برواية واقعة من أظهر الأدلة فى موضوعنا لانها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت الى صفوفها من الافراد صنوفاً وأنواعاً ما بين جاهل غبي وعالم ألمعى رواها عرضاً ربان السفينة جوليان

(١) والواقعة مجرد خيال لكنها جرت مجرى الحقيقة لاجماع الصليبيين عليها

فيليكس فى كتابه الذى ألفه فى مجارى مياه البحر وسبق نشرها فى (المجلة العلمية قال)

كانت المدرعة (لا بيل پول) تبحث فى البحر على الباخرة (بيرسو) حيث كانت قد انفصلت عنها بعاصفة شديدة وكان النهار والشمس صافية وبينما هى سائرة إذا بالرائد يشير الى زورق يساوره الغرق فشخص رجال السفينة الى الجهة التى أشير اليها ورأوا جميعاً من عساكر وضباط جلياً زورقاً مشحوناً بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام البأس والشدة كل ذلك كان خيالا فقد أنفذ الربان زورقاً صار ينهب البحر انجاداً للبائسين فلما اقترب منهم رأى من فيه من العساكر والضباط أكداساً من الناس يموجون ويمدون أيديهم وسمعوا ضجيجاً مبهماً يخرج من أفواه عدة حتى اذا وصلوا المرئى وجدوه أغصان أشجار مغطاة بأوراق قطعت من الشاطئ القريب واذ تجلت الحقيقة غاب الخيال

هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذى يتولد فى الجماعة بحال لا تحمل الشك ولا الابهام كما قررناه من قبل فهنا جماعة فى حالة الانتظار والاستعداد وهنالك رائد يشير الى وجود مركب حفها الخطر وسط الماء مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل من فى الباخرة عساكر وضباطاً

ليس من الضروري أن تتألف الجماعة من عدد كبير حتى تنعدم فيها حاسة أبصار الاشياء على حقيقتها وتبدل الحقائق بخيالات لا ارتباط بينها وبينها بل متى اجتمع بعض أفراد تألفت منهم جماعة لها ما لكل الجماعات من الصفات وان كانوا من أكابر العلماء وليست هذه الصفات كل واحد منهم فيما هو بعيد عن اختصاصه العلمي وفى الحال تنزوى ملكة التمييز وتنطفىء روح النقد في كل واحد منهم ومن الأمثلة الغريبة على ذلك ما رواه لنا موسيو (دافى) وهو أحد علماء النفس المحققين وقد نشرته حديثاً مجلة (أعصر العلوم النفسية) ويحسن بنا ايراده . دعا اليه موسيو (دافى) عدداً من كبار أهل النظر وفيهم عالم من أشهر علماء انكلتره هو المستر (ولاس) وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختوماً كما شاؤا ثم أجرى أمامهم جميع ظواهر فن استخدام الارواح من تجسيم الارواح والكتابة على (الاردواز) وهكذا وكتبوا له شهادات قالوا فيها أن المشاهدات التى وقعت أمامهم لا تنال إلا بقوة فوق قوة البشر فلما صارت الشهادات فى يده أعرب لهم ان ما كان إنما هو شعوذة ما أبسطها قال راوى الحادثة : والذى يوجب الدهش والاستغراب فى بحث مسيو (دافى) ليس ابداعه ومهارته فى الحركات التى قام بها بل ضعف الشهادات التى كتبها

أولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها وان الشهود قد يذكرون روايات كثيرة واقعية كلها خطأ وانه لو صح وصفهم الحوادث التى يرونها لتعذر تفسيرها بالشعوذة على أن الطريقة التى استنبطها موسيو (دافى) بسيطة يندهش الانسان لبساطتها من جراءته على استعمالها ولقد كان له من التأثير فى أفكار جماعته ما جعلها ترى مالم تكن ترى

ذلك هو تأثير المنوِّم فى المنومَّ دائماً واذا تبين أن هذا التأثير جائز في عقول سامية بعد أن أنذرت فكم يكون من السهل التأثير في عقول الجماعة العادية .

والأمثلة التى من هذا القبيل لا تحصى . أنا أكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق ابنتين صغيرتين وانتشالهما من نهر (السين)

عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة أكيدة واتفقت أقوالهم اتفاقا لم يبق معه شك فى ذهن قاضى التحقيق فرخص بدفنهما وبينما الناس يتهيأون لذلك ساق القدر البنتين اللتين عرفهما أولئك الشهود بالاجماع وبان انهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين الفقيدتين الا شبه بعيد جداً والذى وقع هنا هو بذاته ماوقع في الامثلة التى سردناها تخيل الشاهد الأول ان الغريقتين هما فلانة

وفلانة فقال ذلك وأكده فسرت عدوى التأثير الى البقية

وأول مراتب التأثير في هذه الحوادث وأمثالها هو على الدوام مايتولد من الخيال عند أحدهم بسبب حضور بعض المشابهات المبهمة في ذاكرته ثم يتدرج من ذلك الى القول بما تخيل فتنشأ عدوى التأثر بذلك الخيال الأول فاذا كان أول من يقع الحادث تحت حواسه سريع التأثر يكفي أن يكون في الجثة التى تعرض عليه علامة أو أثر خاص كالذى قد يكون في الجسم الذى سبقت له معرفته ليتخيل انها هى ولو لم يكن بينهما أدنى شبه حقيقي فى الخلقة اذ ذاك يصير الخيال الأول أشبه بنواة ذات تبلور تحتل ساحة الادراك وتعطل ملكة التمييز تماماً. وحينئذ لا يرى الانسان الشئ الذى أمامه نفسه بل الصورة التى خيلت اليه. ومن هنا نفهم السر فى خطأ الامهات اللاتى يخيل اليهن انهن يعرفن جثث أولادهن كما وقع فى الحادثة الآتيه وهى وان تكن قديمة العهد لكن الجرائد ذكرتها أخيراً ومنها يدرك القارئ درجة التأثر الذى بينا كيفيته. عرف غلام جثة غلام وكان مخطئاً وترتب على ذلك ان اشخاصاً كثيرين عرفوا الجثة كما عرفها الأول وحدث على أثر هذه المعرفة المتكررة أمر من الغرابة بمكان اذ جاءت امرأة في اليوم الثانى وهى تصيح : ربى انه ولدي فلما دخلت عليه أخذت تقلب ثيابه فرأت

جرحا فى الجبهة فقالت نعم هذا ولدى فقدته منذ شهر يوليه الماضي ولقد سرقوه منى ثم قتلوه . وكانت هذه المرأة حارسة باب أحد المنازل واسمها (شافاتدريت) ثم جيء بزوج أختها فما وقع نظره على الجثة الا وقال هذا فيليبير . كذلك عرفه كثير من سكان حارته كما عرفه معلم المدرسة اذ رأى فى عنقه تميمة من الذهب كانت لديه حجة دامغة على انه هو ابن تلك السيدة . أجل كل أولئك الناس كانوا مخطئين وبان بعد ستة أسابيع ان الجثة جثة ولد من أهل مدينة (بوردو) قتل هناك وحملته شركة النقل الى باريس[1]

والذى تجب ملاحظته هو ان هذه المعرفة تقع غالباً من النساء أو الصبيان أعنى من الاشخاص شديدى التأثر اكثر من غيرهم وذلك يدلنا على مقدار قيمة مثل هذه الشهادات أمام القضاء . فالواجب ان لا يلتفت الى قول الصبي بحال من الاحوال . يقول القضاة مجمعين ان الانسان فى هذا السن لا يكذب . ولو انهم ارتقوا فى معرفة أحوال النفس درجة لعلموا انه فيه يكذب على الدوام . نعم انهم غير آثمين فيما يكذبون ولكنهم على كل حال يكذبون والا لكان الأولى أن تبنى العقوبات على أحد وجهى الدينار (طره

(١) اقرأ جريدة (اكلير) — ٢١ ابريل سنة ١٨٩٥

ولاّ ياز) من أن تبنى على شهادة صبي

والرجع الى مشاهدات الجماعة فنقول انها أكثر المشاهدات خطأ وانها فى الغالب عبارة عن خيال فرد واحد سرت عدواه الى الجميع . وقد لانفرغ من سرد الامثلة التى توجب علينا الحذر والحيطة فى الاخـذ بشهادة الجماعة . فقد حضر ألوف من الناس منذ خمس وعشرين سنة حملة الفرسان فى واقعة (واترلو) ومع ذلك يستحيل معرفة القائد الحقيقى لهذه الحملة نظراً لتناقض أقوال من شهدوها . وأثبت الجنرال (ولسلى) الانكليزى فى كتاب نشره أخيراً ان الرواة أخطأوا خطأ فاحشاً حتى الآن فى سر داهم الوقائع في حرب (سدام) وهى التى أجمع المئات من الناس على صحتها [1]

هـذه الحوادث تدلنا على قيمة شهادة الجماعات . نعم ان

---

(١) أنى اشك كثيراً فى اننا نعرف حقيقة سير حرب واحدة والذى نعرفه انما هو الغالب والمغلوب وأظن انا لا نعرف غير ذلك والذى رواه الدوق (دار كور) عن حرب (سولفيرينو) يصدق على جمع الحرب قال : يكتب القواد تقاريرهم بناء على قول المئات من العساكر فيتناولها الضباط المكلفون بتبليغ الاوامر و يعدلون فيها و يحررون النسخة النهائية فيخالفهم رئيس اركان الحرب و يعيد تحريرها من جديد على حسب معلوماته ثم يعرضونها على القائد العام فيصيح بل انتم مخطئون و يحل محلها غيرها فلا يبقى من الاصل الا يسير وانما حكى موسيو (دار كور) هذه الحكاية ليبرهن على أن الوصول الى معرفة حقيقة أشهر الحوادث حتى التى ضبطت لساعتها يكاد يكون مستحيلا

كتب المنطق تعد اجماع العدد الكثير على الشهادة من أقطع الادلة التى يمكن اقامتها الاثبات أمر من الامور ولكن الذي نعرفه من علم أحوال النفس يرشدنا الى أنه يجب أن تؤلف كتب المنطق فى هذا الموضوع من جديد فالشك كل الشك فى الوقائع التى رواها الجم الغفير والقول بأن الامر شوهد فى الزمن الواحد من ألوف من الشهود هو فى الغالب قول بأن الواقع يخالف كثيراً ما اتفق أولئك الشهود عليه

نتج من هذا أنه ينبغى النظر الى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال لاحتوائها على روايات وهمية لحوادث اصطحب بالشك وقوعها تحت الحواس وأردفت بشروح متأخرة عنها وعليه فان عمل أى عمل كيفما كان رديئاً أولى من قتل الوقت في وضع مثل تلك التآليف

ومن سوء الحظ أنه لا ثبات للاقاصيص وان سجلت في بطون كتب التاريخ لان خيال الجماعات لا ينفك يغيرها ويحرفها مدى الزمن بدليل ما نعرفه الآن من الفرق العظيم بين يهوذا ذلك الوحش الكاسر الذي جاء ذكره فى الانجيل ويهوذا إله الحب الذى ذكره القديس (تيريز) وبدليل انَّ (بوذا) الذى تعبده الصين لم يبق بينه وبين (بوذا) المعبود اليابان وجه شبه ما

بل أنه لا يلزم أن تتعاقب الاجيال لتتغير صور عظماء الرجال في خيال الجماعات فان هذا الانقلاب قد يحصل في بضع سنين. انا شاهدنا قصة أعظم رجال التاريخ تقلبت عدة مرات في أقل من خمسين عاماً . ففي عهد آل (بوربون) كان نابليون رجلا يحب الانسانية حر الافكار صديقاً للضعفاء ولو صدق الشعراء لبقي ذكره في أكواخهم (الفقراء) زمناً مديداً . وبعد ثلاثين سنة صار البطل الكريم مستبداً سفاكا استلب الحكم والحرية وأهلك ثلاثة آلاف ألف من النفوس في سبيل أطماعه . واليوم نحن نشهد صورة جديدة لنابوليون . فاذا انقضى عليه بضع عشرات من القرون داخل الريب علماء ذلك الزمان امام هذه الروايات المتناقضة في وجود هذا البطل كما يشك بعضهم الآن في وجود بوذا وقد لايرون فيه الا خرافة أو صورة مكبرة من صورة (هرقل) اليوناني .غير أنهم سيكون لهم من معرفة زوح الاجتماع ما يسري الحزن عنهم لقاء هذا الشك وخفاء الحقيقة إذ يعلمون التاريخ انما يقلد الخرافة والاقاصيص

٣

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها

كيفما كانت مشاعر الجماعة أي سواء كانت طيبة أو رديئة

فان لها صفتين . بساطة للغاية . وغلواً للنهاية . ومن هذه الجهة يقل الفرق بين الفرد مجتمعاً والرجل الفطرى كما يحصل ذلك أيضاً في أحوال أخرى . فهو يفقد ملكة التمييز الدقيق.ويرى الاشياء فى جملتها ولا يعرف ضرورة الانتقال من طور الى آخر . ومما يزيد في غلو مشاعر الجماعة ان كل احساس يبدو فسرعان ماينتشر بعامل التأثر والعدوى واجماع الكل على قبوله يزيد فى قوته زيادة كبيرة

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لا تعرف الشك ولا التردد . فهى كالنساء تذهب فوراً الى الحد الاقصى.فالشبهة متى بدت تنقلب الى بديهى لا يقبل البحث . والرجل منفرد قد لا يقر على أمر أو ينفر منه نفوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه وأما الرجل فى الجماعة فانه متى نفر انقلب نفوره حقداً شديداً

وتزداد شدة المشاعر غلواً على الاخص فى الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين لفقدان تبعة الاعمال من بينهم . فيتولد عندها من المشاعر وتأتى من الاعمال مايستحيل صدوره عن الفرد الواحد لتحقق كل من عدم وقوعه فى العقاب وكلما كان العدد كبيراً قوى فيه هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة . هنالك ينسى الجبان والجاهل والحسود درجة انحطاطهم وضعفهم ويحل محلها خيال قوة وحشية وقتية لكنها هائلة

ومن نكد الطالع ان غلو مشاعر الجماعات يظهر غالباً فى الشر . وتلك بقية مما ورث أهل هذا الزمان عن آبائهم الأولين . وهى مشاعر يرد جماحها الرجل المنفرد المسؤول عن عمله مسوقاً بعامل الخوف من العقاب . وهـذا هو السبب فى سهولة قيادة الجماعة الى أقبح درجات التطرف

ومع ذلك ليست الجماعات غـير قابلة للقيام باكرم الاعمال والاخلاص وأرفع الفضائل اذا حسن التأثير فيها . بل هى أشد قبولا لذلك من الرجل المنفرد . وسنعود الى هـذا الموضوع عند الكلام فى أخلاق الجماعات

وكما أن الجماعة تغالى فى مشاعرها فلا يؤثر فيها الا المشاعر الغالى فيها . فالخطيب الذى يريد اجتذاب قلوبها يلزمه الاكثار من التوكيدات الحادة . لان المبالغة والتوكيد والتكرار وعدم التعرض أبداً الى اقامة البرهان على أى قضية كلها وسائل خطابية يعرفها خطباء الاجتماعات العمومية حق معرفتها

تطلب الجماعة من أبطالها الغلو أيضاً فى مشاعرهم فما ينبغى لهم من أجلها ان يفخموا في ألقابهم ويعظموا من فضائلهم الصورية. وقد شوهـد ان الجماعة تطلب من أبطال الروايات فى مراسح الملاهى شجاعة واخلاقا وفضائل ليست لأحد فى الوجود الحقيق

والكثير ينسب هذا الميل لاحوال الملاهى الخاصة التى تولد فى نفوس المتفرجين هذا الشعور . نعم لتنسيق المراسح على نحو مخصوص فن ذو قواعد غير انها قواعد لا تنطبق غالباً على مايقتضيه الذوق السليم والأحوال المنطقية . والواقع ان فن الخطابة فى الجماهير ذو درجة منحطة . الا انه يقتضى صفات مخصوصة وكثيراً مايحار الانسان عند تلاوة رواية فى معرفة السبب فى نجاحها . حتى ان مديرى الملاهى أنفسهم عند ما تقدم اليهم تلك الروايات يشكون فى نجاحها لأنهم لايقدرون على الحكم عليها الا اذا لبسوا ثوب جماعة متفرجين [1] ولو انه أتيح لنا التوسع فى هذا البحث لبينا

---

(١) وبما تقدم ندرك السبب فى ان الرواية الواحدة يرفضها مديرو الملاهى كلهم ثم تسنح فرصة فتشخص فتنال نجاحا دونه كل نجاح ونجاح رواية موسيو (كوبيه) المسماة من (اجل التاج) معروف ومشهور بعد ان رفضها مديرو الملاهى الشهيرة كلها مدى عشر سنين مع علو كعب المؤلف ومنزلته الادبية الكبرى . كذلك رواية لامارين دى شارلى . أبت الملاهى كلها تشخيصها فانفق أحد السماسرة المال اللازم لتمثيلها فمثلت مائتى مرة فى فرنسا واكثر من ألف مرة فى بلاد الانجليز ولولا ماقدمناه من استحالة نظر مديرى الملاهى فى الروايات نظر جماعة المتفرجين مافهم كيف جاز ان يصدر عنهم مثل تلك الاحكام أو يصدر عنهم مثل ذلك الخطأ الجسيم وهم من كبار الادباء بين أهل الفن ولهم فى تمثيل الروايات منافع كبيرة من شأنها ان تبعدهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه . هذا موضوع لا يسعنى الاسهاب فيه وهو جدير بان يشحذ له قلم رجل يجمع بين فن الملاهى والبراعة فى علم النفس مثل موسيو سرسى

رجحان تأثير الاخلاق القومية فى هذا المقام. لان الرواية التى تخلب العقول فى بلد قد لا يلتفت اليها فى بلاد غيرها إلا بقدر ما تقضى به المجاملة والاصطلاح لانها لا تحرك في غير بلدها شجون سامعيها وهو شرط نجاحها

لست فى حاجة الى القول بان مغالاة الجماعات تكون على الدوام فى مشاعرها ولا تتعدى الى قوتها العاقلة أبداً . فقد سبق لي بيان أن مدارك الرجل في الجماعة تنحط سريعاً انحطاطاً عظيما ذلك هو ما شاهده أيضاً أحد أفاضل القضاة مسيو (شارد) فى مباحثه عن جرائم الجماعات وعليه فالجماعة انما ترتقي أوتنحط فى دائرة المشاعر

٤

عدم مسالمة الجماعات وميلها الى التسلط والاسرة والمحافظة على القديم

قلنا أن الجماعات لا تعرف من المشاعر الا ما كان متطرفاً بسيطاً وهى لذلك تقبل ما يلقى اليها من الآراء والافكار والمعتقدات بجملتها أو ترفضها كذلك فتأخذها حقائق مطلقة أو ترغب عنها أباطيل مطلقة على ان هذا هو الشأن فى المعتقدات التى تتحصل من طريق التلقى لا التى تتصل بالانسان من طريق النظر والتعقل

وكل يعرف ما للمعتقدات الدينية من التأثير في عدم احتمال المخالف ومن السلطان على النفوس

ولما كان باب الشك غير مفتوح امام الجماعة فى كل ما اعتقدت أنه حق أو باطل وكانت تشعر شعوراً تاماً بقوتها كانت أمرتها مساوية لعدم احتمالها . يطيق الفرد المناظرة والخلف . أما الجماعة فلا تطيق ذلك أبداً وأقل خلف يأتى به الخطيب الذي يتكلم فى المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون بأصوات الغضب والسباب الشديد فان أصر فنصيبه الاهانة والطرد بلا امهال ولولا الرهبة من رجال الشرطة الحاضرين لقتلوه أحياناً

عدم الاحتمال والأمرة شائعان فى الجماعات كلها غير أنهما يختلفان فى كل واحدة منها وهنا أيضاً يظهر لنا أثر الاخلاق القومية المتسلط على جميع مشاعر الناس وأفكارهم . فاقصى درجات عدم الاحتمال والأمرة توجد فى الجماعات اللاتينية إذ بلغت عندها الى حد أنها أماتت فى الفرد روح الاستقلال التى هى أشد اخلاق الانكليزي السكسونى فلا تهتم الجماعات اللاتينية إلا باستقلال المجموع الذى هى منه . وأخص مميزات هذا النوع من الاستقلال شدة الميل الى التعجيل باخضاع المخالف فى الرأى

لمعتقد الجماعة عنوة وقسراً ذلك هو نوع الحرية الذى عرفه المتطرفون فى كل عصرولم يكن فى قدرتهم أن يعرفوا سواه

الأثرة وعدم الاحتمال حاستان من الحواس التى تجيد الجماعات معرفتها فهي تدركها بسهولة وتتلقاها بسهولة وتعمل على مقتضاها بسهولة عند الطلب وهى تحترم القوة وتخنع لها ولا تتأثر بالحسنى إلا قليلا لانها في نظرها صورة من صورة الضعف ليس إلا، لذلك لم تمل الى رؤسائها الذين عرفوا بالرفق واللين بل الى الطغاة المستبدين سحقوها . لمثل هؤلاء تقيم الجماعة التماثيل فى كل عصر وأوان واذا تخطت بالاقدام فوق غشوم سقط من عليائه فذلك لأنه فقد سلطانه واندرج فى عداد الضعفاء الذين يحقرون لكونهم لا يخشون . فأعز الابطال لدى نفوس الجماعة من كان شبيهاً بقيصر يخلبهم جلبابه ويرهبهم سلطانه ويخيفهم صولجانه

الجماعة فى استعداد دائم للانتفاض على السلطان إذا ضعف وهى تحنى الرأس امام الوازع المنيع فان تناوبه الضعف والقوة عاملته بمقتضى مشاعرها المتطرفة وانتقلت من الخنوع الى الفوضى وثابت من الثورة الى الخنوع

ولقد يخطىء فى ادراك حقيقة الاجتماع من يظن أن الروح السائدة على الجماعات دائماً هى الثورة والذى يوجب الشبهة فى ذلك

انما هو تعسفها وقسوتها والحقيقة أن انفجار بركان الثورة منها وصدور أعمال التخريب عنها نزعة عرضية تخمد سريعاً لان خضوعها لفواعل الوراثة شديد بقوة تأثير الغرائز الفطرية فهي ميالة كل الميل الى المحافظة على الحال التي هي ومتى تركت وشأنها ملت الفوضى وسارت بفطرتها الى الاستكانة والاستعباد هكذا كان أشد القوم تهليلا وترحيباً بالقائد بونابرت هم أشد رجال الثورة تغطرساً وتطرفاً لما ألجم جميع الحريات وأثقل يديه التي من حديد

ومن الصعب ان نفهم التاريخ لا سيما تاريخ ثورة الامم إذا لم نكن على علم تام بتأصل علم الجماعات الى المحافظة . تبغى الجماعات استبدال أسماء نظاماتها وقد تثور الثورة العنيفة للوصول الى ذلك التغيير لكن لب هذه النظامات من حاجات الأمة التى تلقتها عن الآباء والاجداد فهى ترجع اليه على الدوام . أما تقلباتها المستمرة فلا تتعلق الا بالمسائل العرضية والحاصل ان عاطفة المحافظة فى الجماعات قوية كما هى عند أهل النشأة الأولى . يبلغ احترامها للتقاليد حد العبادة وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد من شأنه تغيير أحوال معيشتها الحقيقية ولو ان سلطة الدمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميخانيكية واكتشاف

البخار والسكك الحديدية مابلغته الآن لاستحال تحقيق هذه المخترعات أو لكان ثمنها كثيراً من الثورات وقتل الالوف من النفوس. فمن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجماعات مابدأت فى الظهور الا بعد أن تم تحقيق الاكتشافات العظيمة العلمية والصناعية

٥

أخلاق الجماعات

اذا أردنا من كلمة الاخلاق دوام الاحتفاظ بما اصطلح العموم على مراعاته وقمع النفس عن الاسترسال مع نزعات حب الذات فليست الجماعة أهلا لشيء من ذلك لشدة نزقها وعدم ثباتها لكن اذا أدخلنا ضمن معنى هذا اللفظ التخلق مؤقتاً ببعض الصفات كاهمال الذات والاخلاص والتنزه عن الغاية وتضحية النفس والميل الى الانصاف جاز لنا أن نقول بان الجماعات أهل للتجمل باخلاق عالية

أما السبب الذى حدا بالقليل من علماء النفس الذين بحثوا في أحوال الجماعات الى الحكم عليها بانحطاط الاخلاق فهو كونهم قصروا بحثهم على جهة الشر فيها فلاحظوا ان أعمالها من هذه الجهة كثيرة

نعم هذا هو الغالب فى الجماعات وعلته ان العصور الماضية

تركت من شرها وخشونتها بقية اطمأنت فى قلب كل واحد منا والفرد لايجرأ على الاسترسال مع هذه البقية حذر الوبال الذى تجره عليه . أما الجماعة فغير مسؤولة عن أعمالها فاذا هو انخرط فيها أمن العقاب ونشط من عقاله فاتبع هواه . لا ترى انه لما لم يجرأ على الشر مع أمثاله مال به الى الحيوان فواصله بالاذى . فشهوة الايذاء عند الجماعة من طبيعة شهوة الصيد عند المغرمين به فهى تفترس الرجل اذا غضبت فلا تأخذها شفقة ولا يثنيها حنان وهم يجتمعون زمراً زمراً ليشهدوا بقلوب قاسية كلابهم تمزق بانيابها الوعل الضعيف والكل فى نظر الحكيم وحش مفترس

بقى ان الجماعة كما انها أهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار وكل أنواع الجرائم هى أهل للاخلاص فى العمل ولتضحية المنافع الذاتية والنزاهة بدرجة أرقى مما يقدر الفرد بل هى أقرب منه الى تلبية من يناديها باسم الشرف والفخار أو باسم الدين والوطن الى حد المخاطرة بالأرواح وأمثلة الصليبيين ومتطوعى سنة ٩٣ كثيرة يخطئها العد فى التاريخ فالجماعة دون الفرد أهل لعظائم الاعمال فى باب النزاهة والاخلاص وكم من جماعة تقدمت الى الموت فى سبيل معتقدات وأفكار وكلمات كانت تكاد لاتفقه شيئاً من معانيها حتى ان الجماعة التى تقوم بالاعتصاب انما تعتصب لصدور الاشارة

بذلك اليها أكثر من ميلها لنيل الزيادة فى الأجر الزهيد الذى اقتنعت به من قبل لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع وهى على التقريب السبب الوحيد في عمل الفرد فليست هى التى ساقت الجم الغفير من الجموع الى الحروب من دون أن يدرك السبب فيها ولا الغرض منها ولا هى التى جعلتهم يتساقطون على عجل بين يدى الموت كالقبرة يسحرها الصياد بمرآته فتدنو اليه حتى الأوغاد كثيراً مايكون انضمامهم الى الجماعة علة فى ارتقاء الملكات الفاضلة في نفوسهم وقتاً ما كما لاحظه (تاين) فى قتلة شهر سبتمبر الذين كانوا يلتقطون كل ماوجدوه من الأموال ونفيس المتاع ويقدمونه للجنة مع انه كان من السهل عليهم اخفاؤه كذلك الجماعة التى وجهت على قصر (التويلرى) فى ثورة سنة ١٨٤٨ لم يتناول فرد منها شيئاً من تلك النفائس التى بهرتها وقد كان يكفيه قوت عدة أيام مع كونها كانت شديدة الغضب عنيفة الصخب مرذولة الاثر نعم تهذيب الجماعة للفرد ليس هو القاعدة المطردة ولكنه كثير الوقوع حتى فى أحوال أقل شدة من التى تقدم ذكرها وقد سبق لنا القول بان جماعة المتفرجين يطلبون من المشخصين أفضل الاخلاق وأرفع الفضائل ومن السذاجة ان نقول بأن الجماعة وان تكونت من افراد منحطى الاخلاق تظهر غالباً

بظهر الكهل هكذا المنغمس فى الموبقات والديون والوغد يزجرون غالباً اذا رأوا منظراً منافياً للآداب أو سمعوا هذراً يعد تافهاً بجانب حديثهم الذى تعودوه في ندواتهم

ثبت مما تقدم ان الجماعة كما أنها تميل الى الدنايا هى أهل للتحلى بأخلاق عالية واذا صح ان يكون التنزه فى العمل والجلد والأخلاص المطلق لمبدأ وهمى أو صحيح من الفضائل الأدبية . جاز القول بأن للجماعة في الغالب من ذلك ماليس لأعقل الحكماء الا قليلا يحقا هى تزاول تلك الفضائل لا عن قصد ولكن ماضرنا من هذا ونحن لا ينبغى لنا أن نشكو كثيراً من الافعال التى تصدر عن الجماعات بمحض غريزتها الا النادر لأنها لو تعقلت أحيانا ورجعت إلى منافعها القريبة منها ما قام على وجه البسيطة ركن من أركان الحضارة ولا كان للأنسانية تاريخ يتلى

الفصل الثالث

أفكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

(١) افكار الجماعات ـ الافكار الاساسية والافكار التبعية ـ فى اجتماع الافكار المتناقضة ـ تغير الافكار العالية حتى تصل الجماعات الى ادراكها ـ أثر الافكار فى الهيئة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة

(٢) تعقل الجماعات ـ عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول ـ درجة تعقل الجماعة منحطة دائما ـ لاتشابه ولا تلازم بين الافكار التى تجمع الجماعات بينها الافى الظاهر

ـ (٣) تخيل الجماعات ـ شدة تخيل الجماعة ـ انما تتخيل الجماعات بواسطة الصور وهى تتوارد عليها من غير جامعة بينها أصلا ـ انما يشتد تأثر الجماعات من الاشياء بالجهة الخلابة فيها ـ خلابة الاشياء وما فيها من الاقاصيص هما أساس المدنية الحقيقية ـ تخيل الجماعات كان على الدوام قوة رجال السياسة فى الامم ـ كيف تبدو الحوادث التى لها قوة التأثير فى تخيل الجماعات

١

أفكار الجماعات

بحثنا فى كتابنا السابق عن تأثير الافكار فى تطور الامم وبينا ان كل مدنية تقوم على أفكار أساسية محدودة قلما تتجدد

وشرحنا كيف تتمكن تلك الافكار من نفوس الجماعات وكيف انها لاتدخل عليها إلا بالصعوبة وما هي القوة التي تكون لها متى احتلتها ثم أوضحنا كيف أن التقلبات السياسية الكبرى تحدث غالباً مما يطرأ على هذه الافكار الاساسية من التغيير وذلك كله بالاسهاب والشرح الوافى وعليه لا نعود الى بسط الكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى وانما نوجز القول في الافكار التى هى من مقدور الجماعات والصورة التى تتناولها عليها .

تنقسم هذه الافكار الى قسمين: الأول الأفكار العرضية الوقتية التى تولدها بعض الحوادث لساعتها كولوع بفرد من الافراد أو مذهب من المذاهب: والثانى الافكار الاساسية التى تكتسب من البيئة والوراثة والرأى ثباتا مثال ذلك العقائد الدينية فى الماضى والافكار الدمقراطية والاجتماعية فى الزمن الحالى .

فالافكار الاساسية أشبه بالماء الذى يجرى الهوينا فى النهر والأفكار العرضية تشبه الأمواج الصغيرة المتغيرة على الدوام التي تضرب وجه ذلك الماء وهى مع قلة أهميتها أظهر أمام العين من سير النهر نفسه

وقد أخذت الآن الأفكار الأساسية التى عاش بها آباؤنا

فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً ففقدت ما كان لها من المتانة والرسوخ وتزعزعت من أجل ذلك النظامات التى كانت تقوم عليها وفى كل يوم تظهر أفكار وقتية كثيرة مما ذكرنا إلا أن القليل منها هو الذى ينمو وهو الذي يكون له في المستقبل تأثير كبير

وكيفما كنت الافكار التى تلقي فى نفوس الجماعات فانها لاتسود ولا تتمكن الا اذا وضعت في شكل قواعد مطلقة بسيطة لتبدولها فى هيئة صورة تحسنها وهو الشرط اللازم لأن تحل من نفوسها محلا كبيراً وليس بين هذه الافكار المصورة أقل رابطة عقلية من التشابه أو التلازم فيجوز أن يحل بعضها محل بعض كالزجاجات السحرية التى يستخرجها العامل واحدة فواحدة من صندوقها ذلك هو السبب فى قيام الافكار المتناقضة بجانب بعضها عند الجماعات وعلى حسب الاحوال تكون الجماعة تحت تأثير أحد هذه الافكار التى اجتمعت فى مدركتها فتأتى بأشد الأعمال تناقضا وتضاربا

هذه حال ليست خاصة بالجماعات وحدها بل هي تشاهد أيضا فى الافراد لافرق فى ذلك بين من لايزال على الفطرة ومن أشبههم بناحية من نواحى العقل كالذين غلت ثورة الدين فى رؤوسهم بل انى شاهدت ذلك بدرجة توجب الاستغراب عند بعض

مستنيرى الهندستان الذين تربوا فى مدارسنا الاوروبية ونالوا جميع شهاداتها فرأيت انه ارتكز على مجموع معتقداتهم الدينية المستديم أو أفكارهم الاجتماعيـة الوراثية بمجموع أفكار غريبة لاعلاقة بينها وبين الاولى وذلك من دون أن تؤثر فيها وكانت هذه أو تلك تظهر فى الخارج طبقا لمقتضى الحال بجميع مشخصاتها من أعمال وأقوال فيبدو الفرد منهم مناقضا لنفسه كل التناقض على إنه تناقض فى الواقع ظاهر أكثر مما هو حقيق لأن الأفكار الموروثة هى المعول عليه انما هو الاثر الذى ينتج عنه ألا ترى ان الافكار الدينية في القرون الوسطى والافكار الديمقراطيه فى القرن الماضى والاجتماعية فى زماننا هـذا ليست رفيعة بمقدار ماقد يظهر فان الفلسفة لاتعتبرها الآ أغاليط صغيرة ومع ذلك فانه لاحد لاثرها فيما مضى وستكون ولا حد له فيما يأتى ستبقى هى العوامل الاساسية فى حياة الدول والممالك زمناً طويلا

ثم ان الفكر وان تغير حتى صار تناوله فى مقدور الجماعات لايظهر أثره الآ اذا دخل في عداد الغرائز وامتزج بالنفس فصار من المشاعر وهو مايقتضى زمناً طويلاً ولذلك وسائل سنأتى على بيانها في موضع آخر

فلا يتوهمن القارىء ان أثر الفكر يظهر متى تبينت صحته

حتى عند ذوى العقول النيرة . يتضح ذلك لمن عرف ضعف تأثير صحة الفكر في السواد الاعظم من الناس بعدظهورها جلياً . نعم اذا تم الوضوح جاز الاعتراف من السامعين ان كانوا من المستنيرين غير انهم لقرب عهدهم بالايمان لا يلبثون ان ترجعهم فطرتهم الى معتقدهم القديم فاذا لاقيتهم بعد قليل من الايام رأيتهم يسوقون اليك حججهم الأولى فى ثيابها الأولى بلا تغيير لانهم خاضعون لسلطان أفكار أصبحت بحكم الزمان ملكات فطرية وهى وحدها الفعالة فى موجبات أعمالناوأقوالنا والجماعات لا تشذ عن هذه القاعدة

لكن متى توفرت الوسائل العديدة وتمكن بها الفكر من نفس جماعة كان له قوة لا تعارضها قوة وأنتج آثاراً متعددة لابد من الرضوخ لحكمها . قطعت الافكار الفلسفية التي أدت الى الثورة الفرنساوية في سيرها نحو نفوس الجماعات مايقرب من مائة عام وكل يعلم مقدار قوتها الجارفة بعد ان تمكنت منها . هبت أمة بتمامها لنيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المعنوية واقامة صرح الحريات التى تنتهى اليها الآمال فزعزعت التيجان وجعلت عالى الغرب سافله اذ تساجلت الامم بالحروب عشرين عاما وشهدت القارة الاوروبية من سفك الدماء وقتل النفوس ماينخلع له قلب تيمورلنك وجنكيزخان مشهد لم ير البشر قبله الى أى حد يصل هول الفكر اذا انبثق

وكما أن وصول الافكار الى نفوس الجماعات يقتضي زمناً طويلا كذلك خروجها منها لهذا كانت الجماعات دائماً متأخرة فى أفكارها عدة أجيال عن الفلاسفة والعلماء وكل رجال السياسة يعلمون اليوم ما فى الافكار السياسية المتقدم ذكرها من الخطأ ولكنهم يعلمون أن سلطانها لا يزال متمكناً لذلك هم مضطرون فى قيادة الامم الى مراعات مقتضياتها ولما يعتقدوا بشئ من صحتها

٢

تعقل الجماعات

لا يمكن القول مطلقاً بان الجماعات لا تتعقل ولا تتأثر بالمعقول غير أن طبقة الادلة التي تقيمها هى تأييداً لأمر من الأمور أو التى تؤثر عليها منحطة جداً من الجهة المنطقية فلا يصدق عليها اسم الدليل الا من باب التشبيه

وتلك الأدلة المنحطة مبنية على قاعدة الاساس كالأدلة الراقية الآ ان رابطة الافكار التى تقرنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرية لا حقيقية فهي تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة فى ذهن الرجل الاسكيماوي الذى عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب فى الفم فاستنتج من

ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضاً يجب أن يذوب في الفم وكالمتوحش الذي يتصور أن أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته الى الآكل أو كالأجير الذي هضم المعلم حقه فقال بأن جميع المعلمين هضامون للحقوق

والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لا رابطة بينها الا في الظاهر والانتقال الفجائي من الجزئي الى الكلي ومن التخصيص الى التعميم بلا ترو والادلة التي يقدمها اليها أولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز لانها هي الادلة التي تؤثر فيها بخلاف سلسلة من الادلة المنطقية فانها لا تدركها بحال لذلك صح القول بأنها لا تتعقل أو هي تتعقل خطأ وأنها لا تتأثر بالمعقول وكثيراً ما يعجب الانسان عند مطالعة بعض الخطب من التأثير العظيم الذي أحدثته في سامعيها على ما بها من الضعف والركاكة وكأنى بالمتعجب وقد نسى ان تلك الخطب انما صيغت لتؤثر في الجموع لا ليقرأها العلماء فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التي تجذبها فاذا نجح فذلك ما أراد ولو ألقيت خطب في عشرين مجلد بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما أحدثته تلك الكلمات التي دخلت في الرؤوس المراد اقناعها

وغنى عن البيان ان عدم قدرة الجماعات على التعقل الصحيح يذهب منها بملكة النقد أى يجعلها غير قادرة على تمييز الخطأ من الصواب وان تحكم حكما صحيحاً فى أمر ما أما الافكار التى تقبلها هى فهى التى تلقى اليها لا التي يناقش فيها والذين لا فرق بينهم وبين الجماعات فى هذا الباب كثيرون وسهولة انتشار بعض الأفكار وصيرورتها عامة آتية على الاخص من عدم قدرة السواد الاعظم على اكتساب الرأى من طريق النظر الذاتى

٣

تخيل الجماعات

الجماعات كالذوات التى لا تتعقل في حدة التخيل وفعله الدائم وفي قابليتها للتأثر الشديد فالصورة التى تحضرها من انسان أو واقعة أو رزء تكاد تؤثر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها وحال الجماعات أشبه بالمنوم الذى تقف فيه حركة العقل هنيهة فتحضر في ذهنه صور مؤثرة جداً لكنها تزول بمجرد التأمل فيها ولما كانت الجماعات لا تعرف التعقل ولا التأمل كانت كذلك لا تعرف ان شيئاً ما غير معقول وغير المعقول هو الاشد فعلا في النفس غالباً

لهذا كانت الجهة الغريبة والقصصية مما يقع تحت حواس الجماعة أكبر مؤثر فيها واذا دققنا النظر في حضارة ما وجدناها انما تقوم على الغريب والقصص كذلك التاريخ للظاهر فيه شأن أكبر من الواقع والوهمى سائد على الحقيق

لا تتعقل الجماعات الا بالتخيل ولا تتأثر الا به فالصور هى التى تفزعها وهي التى تجذبها وتكون سبباً لافعالها .

لذلك كان التشخيص فى الملاهي من أكبر المؤثرات في الجماعات دائماً لأنه يمثل لها الاشياء فى أجلى صورها فكانت عامة الرومانيين ترى السعادة كل السعادة فى العيش والملهى ولا تبتغي بعد ذلك شيئاً وقد مرت القرون وتعاقبت الدهور ولم يتغير هذا الخيال الا قليلا ولا يزال التمثيل أكبر مؤثر فى الجماعات من كل الطبقات فجميع الحاضرين يتأثرون بمؤثر واحد وان كانوا لا ينتقلون على الفور من الشعور الى العقل فذلك لان الفرد منهم وان بلغ منه عدم الالتفات للواقع ما بلغ لا ينسى أنه فى عالم الخيال وانه انما ضحك أو بكى متأثراً بحوادث تصورية على أنه قد يقع أن الصورة تفعل فى النفس فعل المؤثرات الحقيقية فتدفعها الى العمل إذ كثيراً ما سمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائماً بممثل الخائن الأثيم عند خروجه

خوفاً عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لانه ارتكب تلك الجرائم الوهمية وهذا فيما أرى من أكبر الادلة على حالة الجماعات العقلية وبالاخص على سهولة التأثير فيها فللوهمي عليها من ذلك ما للحقيقي تقريباً وهي ميالة ميلا ظاهراً الى عدم التمييز بينهما

يقوم سلطان الفاتحين وتبنى قوة الممالك على تخيل الامم ولا تنجر الجماعات الا بالتأثير في ذلك التخيل وكل حوادث التاريخ العظيمة كايجاد البوذية وتشييد أركان المسيحية والاسلام وقيام البروتستانتية والثورة فيما مضى وكاغارة الافكار الاشتراكية المزعجة في هذه الايام انما هي نتائج قريبة أو بعيدة لتأثرات شديدة في تخيل الجماعات

ذلك هو العلة فى أن جميع أقطاب السياسة في كل عصر وفي كل أمة حتى أشدهم استبداداً اعتبروا تخيل أممهم أساساً تقوم عليها قوتهم وما فكروا يوماً فى أن يحكموا الناس بدونه

قال نابليون فى مجلس شورى الحكومة (انني أتممت حرب الفندائيين لما تكثلكت واستوليت على مصر إذ اسلمت وتوجت بالظفر فى حرب ايتاليا لاني قلت بعصمة البابا ولو كنت أحكم

شعباً يهودياً لاعدت معبد سليمان) ويظهر لى أنه لم يقم منذ الأسكندر الاكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير فى تخيل الجماعات مثل نابليون فقد كان ذلك التأثير همه الدائم ما نسيه في انتصاراته وخطبه وأحاديثه ولا في عمل من أعماله وكان يفكر فيه وهو على سرير موته

أما كيفية التأثير في تخيل الجماعات فسنذكرها وانما نكتفى هنا بالاشارة الى أن ذلك لا يكون أبداً بمخاطبة الادراك والعقل أعنى بطريقة البحث والتقرير بدليل أن (انطوان) لم يهيج نفوس الامة على قاتل قيصر بقوة البديع وعلم البيان بل أثارها لما قرأ وصية المقتول وأشار بالقوم الى جثته

الذى يؤثر في خيال الجماعات هو ما يتمثل لها في صورة اخاذة جلية مجردة عن الشرح والذيول غير مصحوبة الا بما فيه غرابة أو سر مكنون، كانتصار باهر، أو معجزة بالغة، أو جرم فظيع، أو أمل دونه الامل فينبغى ان ترى الاشياء جملة على علاتها وأن لا يوضح كنهها أبداً لان مائة جرم صغير أو مائة رزء صغير لا تؤثر أقل تأثير في تصور الجماعات لكن جرماً واحداً كبيراً أو رزءاً كبيراً واحداً يؤثر فيه أثراً شديداً وان قل ضرره كثيراً عن ضرر مائة الرزء كلها وبرهانه أن القوم كادوا لا يشعرون بضرر النزلة

الوافدة التى أخذت على باريس منذ بضع سنين فامانت من سكانها خمسة آلاف نسمة في بضع أسابيع لان هذه المقتلة لم تبد أمام الجمهور في صورة بينة بل علموها من الاحصا آت اليومية التى كانت تنشر في حينها ولو أن حادثاً واحداً قتل بسببه خمسمائة بدل تلك الآلاف الخمسة وكان ذلك في يوم واحد في الطريق العام كما لو سقط برج ايفل لتأثروا منه تأثراً عظيما

انقطعت أخبار إحدى بواخر الاطلانطيق فظن أنها غرقت وكان لذلك في خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانية أيام ودل الاحصاء الرسمي على غرق ٨٥٠ مركب شراعى و٢٠٣ مركب تجاري في سنة ١٨٩٤ وحدها ضاع معها من الأرواح والأرزاق ما لا تقدر قيمته وما هو أكبر من قيمة تلك الباخرة بما فيها لو فقدت ومع ذلك لم يشتغل الناس بهذه الخسارة لحظة واحدة

نتج من هذا ان الحوادث ليست هى التى تؤثر بذاتها في تخيل الجماعات بل المؤثر هو كيفية وقوعها وكيفية تمثيلها أعنى أنه يجب أنها يتكون من مجموعها صورة أخاذة تملأ الفكر وتضيق عليه ومن عرف كيف يؤثر في تخيل الجماعات عرف كيف يقودها

الفصل الرابع

الصبغة الدينية التي تتكيف بها اعتقادات الجماعات

ماهو الشعور الديني ـ الشعور الديني مستقل عن عبادة الالوهية ـ مميزات الشعور الديني ـ قوة المعتقدات التي لها صبغة دينية ـ أمثلة شتى ـ في أن آلهة العامة لم تزل ـ في الصور الجديدة التي تظهر بها تلك الآلهة ـ الشكل الديني للالحاد ـ أهمية هـذه المبادىء من الجهة التاريخية ـ في أن الاصلاح أو قيام البروتستانتية وواقعة سانت بارتلمي وزمن (الهول) وجميع الحوادث المماثلة هي أثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

بينا أن الجماعات لا تتعقل وانها تقبل الأفكار أو ترفضها جملة وأنها لا تطيق المعارضة ولا تحتمل المناظرة وأن المؤثرات التي تفعل فيها تحتل منها دائرة الادراك كلها وسرعان ما تنتقل من التأثر الى الفعل وأنها إذا حسن التأثير فيها تضحي نفوسها فداء للمقصد التي وجهت اليه وكذلك عرفنا ان مشاعرها شديدة متطرفة فالميل عندها لا يلبث أن ينقلب عبادة والنفور لا يكاد يدخل عليها حتى يصير سخيمة وتلك البيانات العامة تشعر بكنه اعتقاداتها

اذا دققنا النظر فى اعتقاد الجماعات أيام سيادة الأديان أوفى أزمنة الثورات السياسية الكبرى كالتى حصل في القرن الماضى رأينا أنها تتصبغ دائماً بصبغة مخصوصة لا يسعنى التعبير عنها بأحسن من تسميتها بالشعور الدينى

ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية كعبادة ذات يتوهم أنها فوق الذوات والخوف من القوة الخفية التى تظن لها والخضوع الأعمى لأوامرها واستحالة البحث في تعاليمها والرغبة فى نشرها والنزوع الى معاداة من لا يقول بها ومتى تكيف الشعور بهذه الصفة فهو من طبيعة الشعور الديني سواء كان محله إلهاً لايرى أو معبوداً من الحجر أو من الشجر أو بطلا من الشجعان أو رأياً سياسياً فكله شعور تدخل فيه المعجزات وخوارق العادات والجماعات ترى أن فى كل ما خلب لبها واسترعى قلبها قوة دونها قوة البشر

وليس المتدين هو الذي يعبد إلهاً بل متى أسلم الانسان عقله وإرادته وما فيه من حماسة وتعصب لخدمة مبدأ أو ذات جعلها غاية مقصوده ومرمى أفكاره وأقواله فهو دائن بما توجه اليه

ومن المعلوم أن التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على

الدوام كل شعور ديني ويلازمان كل من اعتقد انه ملك ناصية السعادة في الحياة الدنيا أو في الآخرة وهاتان الصفتان توجدان في كل جماعة تحركت بأحد المعتقدات فقد كان اليعاقبة زمن (الهول) متدينين كما كان أهل الاضطهاد متدينين ومنبع حماسة الفريقين في القسوة واحد

كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الاعمى والتعصب الوحشي والاكراه في الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الديني وما البطل الذي تهلل الجماعة له الا إله في نظرها . هكذا كان نابليون مدى خمسة عشر عاماً ولم يكن لمعبود سواه عباد أشد اخلاصاً من الذين عبدوه ولم يسهل على معبود قيادة النفوس الى حتفها أكثر منه وما كان لآلهة الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب أعز من سلطانه .

إن جميع موجدي الديانات ومؤسسي المذاهب السياسية لم يقيموها الا لأنهم تمكنوا من احداث التعصب الذي يجعل الانسان يرى سعادته في العبادة والطاعة ويهيئه لأن يهب حياته لمعبوده . هكذا كان الحال في كل وقت وزمان ولقد أصاب موسيو (فوستان دي كولنج) حيث قال في كتابه على بلاد الغلوا الرومانية ان الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة ولكن

بما وجد في النفوس من الاعجاب بها اعجاباً دينياً قال (ولم يرو لنا التاريخ ان دولة مكروهة من شعوبها دامت خمسة قرون والا لتعذر أن نفهم كيف أن ثلاثين كوكبة من جند الأمبراطورية تمكنوا من قهر مائة مليون على الطاعة) إنما أطاع القوم لأن الامبراطور الذي كان يمثل عظمة الرومان كان يعبد عبادة الآلهة باتفاق فكان له في كل قرية حتى الحقيرة محراب وقدسرى في المملكة من أولها الى آخرها دين جديد مناسكه عبادة القياصرة وقبل ظهور المسيحية ببضع سنين أقامت بلاد الغلوا كلها وكانت ستين مدينة هيكلا للامبراطور (أوغسطس) بالقرب من مدينة (ليون) وكان لقسوس هذا الهيكل المقام الأول في نفوس سكان تلك البلاد ومحال أن يكون الباعث على ذلك كله الخوف أو الخنوع فان الخنوع لا يوجد في أمة بتمامها ثم هو لا يدوم ثلاثة قرون وما كانت البطانة التى هى تعبد الامير وحدها بل روما جميعها بل الغلوا كلها بل بلاد الاندلس واليونان وآسيا

ليس لفاتحي النفوس فى هذا الزمان معابد وهيا كل لكن لهم صور وتماثيل والعبادة التى يعبدون بها لاتخالف كثيراً ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة التاريخ تتوقف على اجادة معرفة هذا المبحث في علم روح الجماعات . من لم يكن إلهاً للناس فليس شيئاً مذكوراً

لايقوان قائل تلك أوهام كانت فى الاعصر الماضية فبددها العقل في هذه الايام لان العقل لم يكن لينتصر فى محاربة الشعور أبداً نعم لم تعد الجماعات تطيق اسم الالوهيـة والدين الذى دانت لحـكمه ذلك الزمن المديد ولـكن معبوداتها لم تكثر كثرتها منذ مائة عام وهى لم تقم للآلهة السابقين من التماثيل والمحاريب مقدار ما أقامت لآلهة هذه الايام والذين نقبوا عن الحركة العمومية المسماة (بوانجية) التى حصلت في السنين الأخيرة يعلم سهولة ظهور الشعور الدينى فى الجماعات فلم يكن من فندق أو قهوة فى قرية الا وفيها صورة البطل وكانوا ينسبون اليه القدرة على رد المظالم كلها ومداواة الآلام كلها وكان الالوف من الناس على استعداد لتضحية حياتهم من أجله ولو كان فى أخلاقه مقوم لشهرته ولو قليلا لنال المكان الأرفع فى التاريخ

لذلك نرى من الفضـلة تكرار انه لابد للجماعات من دين مادامت جميع المعتقدات السياسية أو الالهية أو الاجتماعية لا تطمئن عندها الا اذا لبثت ثوب الدين الذى يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين بل لو أمكن ادخال عـدم الاعتقاد فى الجماعات لاشتد تعصبهم فيه كأنه معتقد دينى ولصار فى الخارج ديناً يتعبد به الناس ومن الامثلة الغريبة على مانقول ما كان من أمر تلك الفئة

القليلة صاحبة مذهب الوضعيين فقد وقع لها ما وقع للرجل العدمى (نهيلست) الذي روى لنا العلامة (رستوفيسكى) قصته قال اشرق ذات يوم نور العقل على ذلك العدمى فعمد الى صور الآلهة والقديسين التى كانت تزين أحد المعابد وحطمها وأطفأ الشموع ووضع مكان الصور مؤلفات بعض الفلاسفة الذين لا يعتقدون مثل (بوخنر) و (موليشوت) ثم تولاه التقى فأوقد الشموع حول هاتيك الكتب فمحل اعتقاده الدينى كان قد تبدل ولكن مشاعره الدينية ما تبدلت أبداً

وعليه لا يدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الادراك الا اذا وقف على الصبغة الدينية التي ينتهى حتما اليها اعتقاد الجماعات. ومن الحوادث الاجتماعية ما ينبغى البحث فيه على طريقة علماء النفس لا على طريقة الطبيعيين فان مؤرخنا العظيم (تاين) لم ينظر فى الثورة الفرنساوية الا نظراً طبيعياً لذلك فاتته حقيقة الحوادث غالباً نعم لم تفته من الوقائع فائتة ولكنه غفل عن البحث فى روح الاجتماع فلم يصل الى علل ما أثبت منها وقد هالته الوقائع بما اشتملت عليه من الدماء والتوحش والقسوة فلم ير في ابطال ذلك الزمن

الكبير الا قطيعاً من المتبربرين السفاحين انطلقوا وراء شهواتهم ولم يجدوا مانعاً يصدهم عما كانوا يشتهون

على أنه لا سبيل لادراك حقيقة ما كان في الثورة الفرنساوية من القسوة وسفك الدماء والحاجة الى نشر الدعوة واعلان الحرب على جميع الملوك الا اذا فطن الباحث انها أي الثورة أثر معتقد ديني جديد حل في نفوس الجماعات ومثل ذلك أيضاً كانت قيامة الاصلاح (البروتستانتية) ومقتلة صانت بارتلمى و (الاضطهاد) و (الهول) فكلها فظائع ارتكبتها الجماعات المتحمسة بشعور من شأنه أن يدفع الذى حل في قلبه الى استعمال النار والحديد لاستئصال كل مايعترض قيام المعتقد الجديد من دون أن تأخذه رحمة ولا حنان لذلك كانت وسائل الاضطهاد هى وسائل جميع المعتقدين الحقيقيين ولو انهم استعملوا غيرها ما كانوا من الموقنين

ولا تظهر في الوجود أمثال الانقلابات التي مرّ ذكرها الا اذا قذفت من جوف الجماعة وليس في استطاعة أكبر المستبدين إثارتها والمؤرخون الذين رووا لنا ان الملك هو السبب في واقعة صانت بارتلمي كانوا يجهلون روح الجماعات وروح الملوك معاً لان مثل هذه المظاهرات لاتخرج الا من قلب الجماعات ولا يقدر

أكبر الملوك وأشدهم استبداداً على أكثر من تعجيلها أو تأجيلها فليس الملوك هم الذين أحدثوا واقعة صانت بارتلمى ولا حروب الدين كما ان (روبسبير) و (دانتون) و (صانت جوست) ليسوا هم الذين أحدثوا (الهول) بل نجد على الدوام وراء هذه الحوادث روح الجماعات لا سلطة الملوك



الباب الثاني

أفكار الجماعات ومعتقداتها

الفصل الأول

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وأفكارها

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات ـ فى ان ظهور معتقدات الجماعة نتيجة اختمار سابق ـ البحث عن العوامل المختلفة فى تلك المعتقدات

(١) الشعب وما له من التأثير الاول ـ فى انه مستودع ماترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب ـ اهمية التقاليد من الجهة الاجتماعية ـ فى انها تصير مضرة بعد ان كانت لازمة ـ فى ان الجماعات أشد احتفاظاً للافكار التقليدية

(٣) الزمن وكونه يهيء استقرار المعتقدات ثم زوالها ـ فى أنه هو الذى يولد النظام من الفوضى

(٤) النظامات السياسية والاجتماعية ـ فى الخطأ فى تقدير تأثيرها ـ فى ان تأثيرها ضعيف جداً فى أنها آثار لا مؤثرات ـ فى أنه لا يتيسر للامم أن تختار منها ما تظنه الا حسن ـ فى ان النظامات عناوين يندرج تحت الواحد منها أمور متخالفة بالمرة ـ كيف توجد النظامات ـ فى أنه لا بد لبعض الامم من بعض نظامات رديئة نظرياً كتجمع السلطة وتوحيدها

(٥) التعليم والتربية ـ خطأ الناس فى افكارهم الحالية من حيث تأثير التعليم فى الجماعات ـ بعض ايضاحات من الاحصاآت ـ التربية اللاتينية تضعف الاخلاق ـ فى التأثير الذى يمكن ان يكون للتعليم ـ امثلة عن أمم مختلفة

فرغنا من البحث فى تركيب القوة المدركة عند الجماعات وعرفنا كيف تشعر وكيف تفكر وتتعقل ونريد الآن أن نبحث فى كيفية تولد آرائها واعتقاداتها وكيفيه حلول هذه الآراء والمعتقدات واستقرارها فى نفوسها

العوامل التى تولد الآراء والاعتقادات فى الجماعات قسمان بعيدة وقريبة

فأما العوامل البعيدة فهى التى تهيئ الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض أعنى أنها التربة التى تنبت فيها أفكار جديدة ذات قوة وأثر مدهشين وظهور تلك الافكار يكون فجأة فقد تشبه فى انبثاقها والعمل بها انقضاض الصاعقة الا أن الواقع انها نتيجة عمل سابق طويل ينبغى البحث عنه

وأما العوامل القريبة فهى التى تأتى بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعى الى الفعل أعنى أنها تقوم الفكر وتقذف به الى الخارج مع جميع مايحتمل من النتائج فهي التى تدفع الجماعات فجأة الى القيام بما تمكن من

نفسها من الاعمال وهى علة القلاقل والاعتصابات والتفاف الجم الغفير حول رجل يرتفع بذلك الى الأوج أو ضد حكومة تهبط الى الدرك الاسفل

تتعاقب هذه العوامل بقسميها فى جميع حوادث التاريخ العظيمة ففى الثورة الفرنساويه وهى أكبر مثال لتلك الحوادث كانت العوامل البعيدة هى كتب الفلاسفة وعسف الشرفاء وتقدم العلم وهى التى هيأت روح الجماعات ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك فى إجراء إصلاحات لاتعد شيئاً كبيراً وهى التى أثارت الجماعات بالسهولة

ومن العوامل البعيدة ما هو عام بمعنى أنه يؤثر فى معتقدات كل جماعة وفى آرائها وهى الشعب والتقاليد والزمن والنظامات والتربية وسنبحث فى شأن كل واحد من هذه العوامل

١

الشعب

بدأنا به لأن له المقام الأول بين العوامل فله وحده من الأثر ما يربو على آثارها كلها. وقد وفينا البحث فيه حقه فى كتابنا (النواميس النفسية لتطور الأمم) حتى لم يعد من المفيد أن نُرجع اليه هنا اذ بينا هناك ما هو الشعب من حيث التاريخ

وكيف انه متى كملت مميزاته يصير بمقتضى الوراثة نفسها ذا قوة عظمى وتكون له روح ترجع اليهـا اعتقاداته ونظاماته وفنونه وجميع عناصر مدنيته كذلك بينا ان قوة الشعب تبلغ حداً يتعذر معه انتقال أحد هذه العناصر من أمة الى أخرى بدون أن يتغير تغيراً عاماً وخصصنا أربعـة فصول منه لشرح هـذه القضية لكونها حـديثة العهد ولأنه يصعب فهم التاريخ بدونهـا هناك يرى القارئ انه رغم ظواهر الحال التى قد توجب اللبس يستحيل أن تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أى عنصر من عناصر المدنية من أمة الى أخرى الا اذا أصابها التغير والتحول . نعم ان البيئة والاحوال والحوادث تشخص مقتضيات الزمن الذى هى فيـه وقد يكون لهـا تأثير كبير لـكنه تأثير عرضى على الدوام اذا تضارب مع مقتضيات الشعب أعنى مع سلسـلة تلك المؤثرات الوراثية

على انا سنعود الى ذكر شأن الشعب فى كثير من فصول هذا الـكتاب ونوضح انه لقوته يسود على غيره من مميزات روح الجماعات وان ذلك هو السبب فى اختـلاف جماعات كل بلد مع جماعات البلد الآخر من جهة المعتقدات وخطة العمل اختـلافا كبيراً وكذا المؤثرات التي تتأثر بها

٢

التقاليد

التقاليدعبارةعن ماضى الأمةفى أفكارهاوحاجاتهاومشاعرها فهي تشخص روح الشعب ولها في القوم تأثير عظيم

تقدم علم تركيب الاجسام من يوم ان بين علم التكوين مقدار تأثير الماضى في تطور الكائنات وسيتقدم علم التاريخ أيضاً حينما ينتشر هذا الاكتشاف لان انتشاره لم يتم بدليل ان كثيراً من أقطاب السياسة لايزالون على أفكار أهل القرن الماضى ممن كانوا يتخيلون انه يتيسر للأمـة أن تنخلع عن ماضيها وتنشىء نفسها من جديدغير مستهدية فى ذلك الا بنور العقل وحده وفاتهم ان الأمة جسم منظم أوجده الماضى فهي كغيرها من الاجسام لا تستطيع الانتقال من طور الى طور الا بترا كم آثار الوراثة فيها على مهل

والذى يقود الناس ولاسيما اذا اجتمعوا انما هى التقاليدوهم لايسهل عليهم أن يغيروا منها سوى الأسماء والأشكال

وليس هذا مما يوجب الأسف إذ لولا التقاليد ما كان هنالك شيء يقال له روح قومية ولا حضارة ممكنة الا ترى ان هم الناس

منذ وجدوا أن يكون لهم شنشنة تقاليد فاذا زال نفعها اجتهدوا في هدمها والحاصل انه لا مدنية الا بالتقاليد ثم الرقى موقوف على هدمها . والصعوبة فى ايجاد التوازن بين التقلب والبقاء الا أنها صعوبة كبرى فاذا تأصلت فى الامة عادات وتمكنت منها أخلاق عدة أجيال تعذر عليها الانتقال وأصبحت كالامة الصينية غير قادرة على التحسن . ولا تؤثر فيها الثورات العنيفة لانها لا تأتى الا باحدى نتيجتين فاما ان الحلقات التى تقطعت من السلسلة تنضم وتلتحم ببعضها فيعود الماضى الى التربع فى سيادته بدون تغييرما. واما أن تبقى تلك الحلقات منثورة فهى الفوضى وخليفتها التقهقر والانحطاط

لذلك كان أكبر النعم التى يجب أن تصبو اليها الامة هى المحافظة على النظامات التى ورثتها وأن تسير فى الانتقال بها من طور الى أكمل منه على مهل وبلا اهتزاز ذلك مطلب عزيز المنال ولم يفز به الا دولة الرومان فى الازمان الخالية وأمة الانكليز فى الازمان الحاضرة

وأشد الناس محافظة على الافكار التقليدية وأصعبهم مراساً فى معارضة من يحاول تبديلها هى الجماعات خصوصاً الجماعات التى

تتكون منها فئات معينة وقد سبق لى أن أفضت الكلام على تمسك الجماعات بالماضى وبينت أن أشد الثورات عنفاً لا تؤدى إلا الى تغيير فى الالفاظ ومن شهد فى آخر القرن الماضى هدم الكنائس وطرد القسوس واعدامهم والاضطهاد العام الذى كان واقعاً على أهل الكثلكة كان يظن أن السلطة الدينية قد بادت ولم يبق لها أثر لكن لم يمض الا بضع سنوات حتى قام الناس ينشدون معابدهم فاضطرت الدولة الى إعادة الدين الذى طمست بالامس معالمه . ومما يوضح ذلك بأجلى بيان ما ذكره (فوركروا) أحد رجال الثورة فى تقريره إذ ذاك ونقله عنه (تاين) قال « أن ما هو مشاهد فى كل مكان من إقامة صلاة يوم الاحد والتردد على الكنائس يدل على أن مجموع الفرنساويين يطلب الرجوع الى عاداته الاولى ولم يعد فى الامكان مقاومة هذا الميل فى الامة لان السواد الاعظم فى حاجة الى الدين والى العبادة والى القسوس ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر — وهو خطأ وقعت أنا فيه أيضاً — القول بامكان ايجاد تعليم عام يكفى لازالة الاوهام الدينية ووجه الخطأ أن فى الدين سلواناً للقسم الاول من المساكين من أجل ذلك يجب أن تترك للامة قسوسها ومعابدها وعبادتها »

هكذا اختفت التقاليد برهة ثم استردت سلطانها وهو مثل

ليس كمثله مثل يبين سلطان التقاليد على النفوس وليست الاشباح التى لا يستهان بها هى التى تسكن المعابد ولا فى القصور يقيم عتاة المستبدين أولئك يبادون فى طرفة عين انما الذى لا قبل لنا به هم أولئك الارباب الذين تمكنوا فى النفوس فتحكموا فى الارواح فلا يزول ملكهم الا بفعل الزمان رويداً رويداً وجيلا بعد جيل

٣

الزمان

أهم العوامل فى المسائل الذى يبحث عنها علم الاجتماع هو الزمان كما انه كذلك فى المسائل التي يبحث عنها علم الاجسام المنظمة فهو الموجد الحقيقى الوحيد وهو الهادم القوى الوحيد . هو الذى كون الجبال من حبيبات الرمال ورفع الخلية الحقيرة التى اشتملت على أصل الوجود النوعى الى مقام الانسان وكل ظاهرة وكل حادثة لا تتغير ولا تتحول الا بالزمان ولقد أصاب من قال ان النملة اذا امتد أمامها الزمن وسعها أن تجعل الجبل الرفيع مهاداً ولو ان موجوداً تمكن من تصريف الزمان كما يشاء لكان صاحب القوة التى يعترف بها المؤمنون للواحد الديان

بحثنا هذا قاصر على تأثير الزمان فى آراء الجماعات ومعتقداتها

وهو فيها له كذلك الاثر العظيم فهو القاهر فوق أكبر المؤثرات الاخرى من التي لا تكون بدونه كالشعب وغيره وهو الذى يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال

والزمان هو بالاخص محضر آراء الجماعات ومعتقداتها أو هو مهيء التربة التى نبتت فيها ولذلك صح وجود بعض الافكار فى زمن وامتنع وجودها فى زمن آخر وهو الذى يذكر المعتقدات بعضها فوق بعض وكذا الافكار فيهيء بذلك قيام الآراء والمذاهب فى العصور المتتابعة لانها لا تنبت صدفة ولا توجد اتفاقاً بل ان لكل واحد منها جذوراً تمتد فى زمن بعيد فاذا انبثقت فانما الزمان هو الذى هيأ تفتح أزهارها واذا أردت ان تعرف كنهها فارجع الى ماضيها . هى بنات الماضى وهى أمهات المستقبل وهى اماء الزمان على الدوام

نتج من هذا أن الزمان هو صاحب السيادة الحقيقة فينا وما علينا إلا أن نتركه يعمل لنرى كل شيء يتحول ويتبدل . نحن الآن فى فزع شديد من مقاصد الجماعات التى تهددنا ومما تنبئنا به من تقويض أركان الهيئة الحاضرة ومن الانقلاب المنتظر فيها ولكن الزمان سيتكفل وحده باعادة التوازن بيننا . قال موسيو

(لافيس) : ما من نظام يقوم في يوم واحـد بل لابد فى تقرير النظامات السياسية والاجتماعية من مرور الأعصر والأجيال فقد بقى نظام حكم الشرفاء مضطربا غير واضح عدة قرون حتى تبين وتأصلت له قواعد يعرفها الناس كذلك قطعت الملوكية المطلقة قرونا قبل أن تهتدى إلى الأصول المنظمة التي تدير بها حكومة البلاد وكم من اضطراب وقع في أدوار هذا الانتقال ».

٤

النظامات السياسية والاجتماعية

لايزال الناس يذهبون إلى أن النظامات تقوّم معوج الهيئة الاجتماعية وان تقدم الأمم أثر من آثار إتقان تلك النظامات واصلاح الحكومات وانه يمكن إحداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الأوامر والقوانين ، كان هذا مذهب الثورة الفرنساوية فى بدايتها واليه يذهب الآن أيضاً من اتخذوا مجرد الخوض فى الاجتماعات مذهبا

ذاك وهم تأصل فى الأفكار لما تبدده التجارب على تكرارها وقد ضاعت فيه متاعب الفلاسفة والمؤرخين الذين تصدوا لبيان فساده لكنهم لم يلاقوا صعوبة فى إقامة الدليل على أن النظامات

بنات الافكار والمشاعر والأخلاق وان الافكار والمشاعر والأخلاق لاتتغير بتغيير القوانين وإن الأمم لاتختار نظاماتها كما تشتهي كما أنها لا تملك اختيار لون أعينها وشعر رؤوسها بل ان النظامات والحكومات ثمرة الشعب الذي هي فيه فليست هي التي تخلق زمنها ولكنها هي التي أوجدها زمانها ، وليست الامم محكومة كما يشاء لها الهوى أنى تشاء، بل كما تشاء أخلاقها وطباعها وكما أن كل نظام لم يستقر إلا بعد قرون عدة كذلك ينبغي لتغييره قرون عدة ، وليس للنظامات قيمة نوعية في ذاتها فلا هي حسنة لذاتها ولا هي رديئة لذاتها وان ماصلح منها لأمة في زمان يجوز أن يكون مضراً في أمة أخرى

لهذا كان من المحقق أن الأمة لاتملك كل الملك تغيير نظاماتها نعم في امكانها أن تبدل أسماءها بواسطة الثورات العنيفة والاضطرابات القوية لكن اللب يبقى كما كان . أما الاسماء فهي عناوين لايلتفت اليها المؤرخ الذي ينقب عن حقائق الاشياء ألا ترى ان أعظم أمة ديمقراطية في الارض هي الامة الانكليزية مع كونها تعيش تحت امرة حكومة ملكية وأن أكبر أمة حفها الاستبداد هي الجمهوريات الاسبانية الامريكية رغم نظامها الجمهوري الذي يحكمها ذلك مايعترف به للانكليز أعظم الجمهوريين

تقدماً فى الولايات المتحدة وانى أذكر للقراء ماجاء فى جريدة (فروم) الامريكية ونقلته عنها مجلة المجلات الصادرة فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ قالت «لاينبغى أن ينسى الناس حتى الذين هم من أكبر أعداء الشرفاء ان انكلترا هى أول أمم الارض فى الديمقراطية أعنى الامة التى بلغ فيهـا احترام حقوق الفرد غايته والتى بلغ أفرادها من الحرية أعلى مقام» وبالجملة فائدة الامم أخلاقها وطباعها لاحكوماتها تلك قضية حاولت بيانها فى كتابى السابق وأثبتها بأوضح دليل وأقوى مثال

لذلك كان من العبث جـداً إضاعة الزمن فى خلق نظام جديد من جـديد بل لافائدة من شد رحال علم المعاني والبيان لخلق مثل هذا النظام فان ذلك من عمل الجهلاء. والحاجة والزمان هما الـكفيلان باعـداده اذا عقل الناس وتركوا هذين العاملين يعملان ، هـذا الذى اعتمد عليه الانـكليز السكسونيون وهذا هو الذى يقوله لنا مؤرخهم العظيم (ما كولى) ضمن كلام يجب على أدعياء السياسة فى الامم اللاتينية أن يحفظوه على قلوبهم ، بدأ المؤرخ ببيان ماأحدثته القوانين الانكليزية من الآثار الطيبة على ما يظهر بها من الرداءة والتناقض والبعد عن المعقول ثم قارن بين نظام انكلترا والبضعة عشر نظاما التى اختنقت بين

تقلصات الأمم اللاتينية في أوربا وأمريكا وأوضح أن الأول لم ينله التغيير الا على مهل جزءاً بعد جزء بتأثير الضرورة لا بتأثير النظر العلمي أبداً ثم قال « القواعد التي سار عليها المائتان وخمسون برلماناً من عهد حنا الى عهد فيكتوريا فى مداولاتها وقراراتها هى أنها ما اهتمت مطلقاً بحسن التنسيق بل كان كل همها فى الفائدة ولم ترفع شاذاً لشذوذه ولم تأت بجديد إلا اذا تحققت أن حرجا استولى على النفوس من أجله ولم تجدد إلا بمقدار ما تتفادى من هذا الجرح ولم تقرر مبدأ أعم من الضرورة التى اقتضته »

ولو أردنا بيان كون القوانين فى كل أمة منتزعة من روحها وانه لا يمكن لذلك تغييرها عنوة وقسراً للزم أن نأتى على كل قانون ونخوض فى كل نظام ، فمثلا يجوز الجدل فلسفياً فى هل حصر السلطة وارجاعها فى النهاية إلى يد واحدة أفضل من تفريقها أم العكس أولى ، لكن إذا رأينا أمة مؤلفة من عناصر مختلفة قضت ألف عام فوصلت بعد ذلك الى حصر السلطة وجمعها ورأينا من جهة أخرى أن ثورة عظيمة جاءت لتحطم كل نظام ولده الزمان قد احترمت هذا الحصر وبالغت فيه كان لنا أن نقول ان هذا النظام هو ابن الضرورة التى لا مفر منها وانه شرط من شروط حياة تلك الأمة وأن نرثى لحال أولئك الذين قصرت

أحلامهم من السياسيين الذين يذهبون الى وجوب ابطال ذلك النظام ولو أن الصدفة ساعدتهم على نيل ما يبتغون لكانت نتيجة ذلك قيام حرب أهلية يستطير شررها والعودة عاجلا الى حصر السلطة بأشد مما هي عليه والذي يقارن بين المنافسات الدينية والسياسية الشديدة القائمة في أجزاء البلاد الفرنساوية والناشئة على الاخص من اختلاف عناصر الأمة وبين ميل البعض الى تجزئة السلطة وتوزيعها أيام الثورة وعقب الحرب الفرنساوية الالمانية يتبين له أن العناصر المختلفة التي لاتزال حية في بلادنا لاتزال بعيدة عن الامتزاج والاتحاد وان أحسن عمل جاءت به الثورة هو حصر السلطة وجمعها وتقسيم البلاد تقسيما اعتبارياً لاطبيعياً إلى أقسام متعددة توصلا الى مزج الاقاليم القديمة وخلط سكانها بعضهم ببعض فاذا أمكن اليوم تحقيق ما يصبو اليه أولئك الذين لايقرأون عواقب الاعمال من التجزئة والتوزيع أدى ذلك الى اضطرابات تهرق فيها الدماء وتقتل النفوس ولا يغفل عن ذلك إلا من نسي تاريخنا

نتج مما تقدم أن التأثير الحقيقي في روح الجماعات لا يكون من طريق النظامات وإذا لفتنا الذهن الى الولايات المتحدة

رأيناها ترفل في حال الرخاء وتخطر فى جلباب السعادة بفضل نظاماتهـا الديمقراطية ثم إذا رجعنا الى الجمهوريات الاسبانية الامريكيه — ألفيناها وهى متمتعة بنظام مثله تتعثر فى أذيال التقهقر والفوضى وحكمنا بأنه لادخل لتلك النظامات لا في سعادة الاولى ولا في شقاء الثانية وبأن الذى يحكم الامم انما هو اخلاقها وكل نظام لا يندمج مع هـذه الاخلاق ويمتزج بها تمام الامتزاج يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لايدوم . نعم قامت حروب دموية وهبت ثورات عنيفة وستقوم حروب وتهب ثورات والغرض منها كان ويكون الزام الامم بنظامات يعتقد الناس أنها مجلبة السعادة كاعتقادهم فى آثار الاولياء والصالحين وقد يقال ان النظامات تؤثر فى نفوس الجماعات لانها تفضى الى مثل تلك الحروب والثورات — والصحيح أن لا تأثير لها البتة لانا قد عرفنا انها لا قيمة لها فى ذاتها سواء كان الغلبة لها أم عليها وانما الذى يؤثر فى الجماعات أوهام وألفاظ وعلى الاخص الالفاظ تلك الالفاظ الخيالية القوية التى سنبين سلطانها

٥

التربية والتعليم

لكل عصر أفكار تسود فيه وان كانت فى الغالب من قبيل الخيالات وقد بينا فى غير هذا المكان ما لتلك الافكار من القوة وماهى عليه من القلة

ومن الافكار السائدة فى هذا العصر ان فى التعليم قدرة على تغيير الرجال تغييراً محسوساً وأن نتيجته التى لايشكون فيها هى إصلاحهم بل إيجاد المساواة بينهم . ذكروا ذلك وكرروه فصار أحد المذاهب الثابتة عند الديمقراطيين وأصبح التعرض له من أصعب الامور كما كان من الصعب التعرض لسلطان الكنيسة في الزمن السابق

ولكن آراء الديمقراطيين فى هذا الموضوع كما هى فى كثير من الموضوعات الأخر مناقضة كل المناقضة لما أثبته علم النفس ولما دلت عليه التجارب فما أثبته الكثيرون من كبار الفلاسفة بلا عناء خصوصاً (هربرت سبنسر) كون التعليم لا يزيد فى تهذيب الانسان ولا فى سعادته ولا يغير من غرائزه وشهواته

التى تلقاها بالوراثة وانه اذا ساء طريقه كان ضرره أكبر من نفعه وأيد علماء الاحصاء هذه النظريات فقالوا ان الميل الى الجرائم يزداد بانتشار التعليم أو هو يزداد بانتشاره على طريقة مخصوصة وان ألد أعداء الهيئة الاجتماعية وهم الفوضويون ينسلون غالباً الى مذهبهم ممن حازوا السبق في المدارس وأشار موسيو (ادلف جيو) وهو أحد أعاظم القضاة انه يوجد الآن فى كل أربعة آلاف مجرم ثلاثة آلاف متعلمون وألف واحد أميون وان عدد الجرائم زاد مدى خمسين سنة من (٢٢٧) جريمة لكل مائة الف نسمة الى (٥٥٢) أعنى بنسبة (١٣٢) فى المائة ولاحظ أيضاً هو ورفقاؤه ان الجرائم تكثر بين الشبان الذين أبدلوا تعلم المهن على يد المعلمين بتعلمها فى المدارس الاجبارية المجانية

نعم مما لا يشك فيه انسان ان التعليم اذا حسنت طرائقه ينتج نتائج عملية ذات فائدة كبيرة فاذا هو لم يرفع درجة التهذيب ويؤثر في رقى الاخلاق فانه ينمى الكفاآت الفنية ولكن من سوء الحظ ان الأمم اللاتينية أسست التعليم على قواعد غير صحيحة ولا سيما منذ خمس وعشرين سنة ومع كون فطاحل العلماء مثل (بريال) و (فوستيل دى كولانج) و (تاين) وكثير غيرهم قد انتقدوها لا تزال تلك الأمم على خطتها فيها وقد

شرحت أنا أيضاً فى كتاب لى أصبح قديما ان طريقة التعليم الحالى عندنا تحوّل القسم الاكبر ممن يتلقونه إلى أعداء للهيئة الاجتماعية وتزيد كثيراً فى اصحاب أشد المذاهب الاشتراكية ضرراً

وأول خطر ينجم عن هذه التربية المسماة بحق تربية لاتينية آت من بنائها على قاعدة يحكم علم النفس بفسادها . ذلك انهم قالوا ان الحفظ عن ظهر القلب يربى الذكاء ويقوي الفطنة ثم انتقلوا من هذا الى وجوب الاكثار من الحفظ ما استطاعوا وصار المتعلم فى المدرسة الابتدائية والعالية حتى الذى يتلقى علوم الاستاذية لا يعمل الا للحفظ وهو فى ذلك كله لا يدرب مداركه ولا يمرن ملكة الاقدام على العمل من نفسه لان التعليم فى نظره ينحصر فى القاء المحفوظ وفي الخضوع قال موسيو (جول سيمون) وهو أحد وزراء المعارف الأقدمين « ان حفظ الدروس عن ظهر قلب وكذا حفظ متن فى النحو أو مختصر وحسن الالقاء وحسن التقليد تربية هى من الهزء بمكان اذ كل همة يبديها المتعلم فى هذه السبيل عبارة عن الاعتقاد بان المعلم مصون عن الخطأ وذلك لا ينتج إلا نقصنا وضعفنا »

ولو ان ضرر هذه التربية كان قاصراً على عدم فائدتها لاكتفينا بالعطف على أولئك الاطفال المساكين الذين يحفظون

فى المدرسة نسب (كلوتير) ومصارعات (نوستيرى) وفصيلات الحيوان وغير ذلك بدلا من أن يتعلموا أشياء كثيرة أخر نافعة لكن ضررها أكبر من ذلك فهى تولد فى نفس المتعلم سآمة شديدة من حالته التى هو عليها بمقتضى نشأته ورغبة شديدة فى الانسلاخ عنها فلا الصانع يبغى البقاء على صنعته ولا الفلاح يميل الى الدوام فى فلاحته وأقل الناس فى الطبقة الوسطى لا يختار لابنائه عملا إلا فى وظائف الحكومة والمدرسة لا تربى رجالا قادرين على الحياة وإنما تخرج عمالا لوظائف ينجح فيها الانسان دون أن يهتم بقيادة نفسه ولا أن يتقدم الى عمل من ذاته . فهى توجد فى أسفل سلم الهيئة الاجتماعية جيوشاً من الصعاليك المتعضين المتهيئين دائماً للثورة . وفى أعلاه طبقتنا الوسطى الفارغة الحذرة المغفلة التى تعتقد اعتقاداً دينياً فى قدرة الحكومة وبعد إمكانها وهى مع ذلك لا تنفك عن القدح فيها والتى تخطئ ثم تؤاخذ الحكومة بما أخطأت والتى لا تقدر على القيام بعمل لا يد للحكومة فيه

أما الحكومة التى تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات فلا يسعها أن تستصنع منهم الا القليل وتترك الباقين بالضرورة بلا عمل . فوقعت بذلك بين ضرورة تغذية أولئك والصبر على

عداء هؤلاء . احتشد ذلك الجمع العظيم من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف من القمة الى القاعدة أى من الكاتب الصغير الى المعلم فالمدير وصرنا نرى التاجر لا يجد الا مع الشفقة نائباً يتولى أعماله فى المستعمرات . ونشاهد الالوف من الشهادات مكتظة امام باب كل وظيفة مهما صغرت . ويوجد الآن فى مديرية السين وحدها من المعلمين والمعلمات عشرون ألفاً لا عمل لهم ترفعوا عن عن المعامل والمصانع وشخصوا الى الحكومة يطلبون القوت منها ولما كان عدد الذين يختارون منهم قليلا فعدد الغضاب كثير بالضرورة وهؤلاء مستعدون لكل نوع من أنواع الثورة والهرج تحت قيادة أى رئيس كان وكيفما كان الغرض. ذلك لان اكتساب معارف لا يجد صاحبها سبيلا الى استعمالها هو من انجع الوسائل فى تهيئة المرء الى الخروج على أمته [1]

---

(١) على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالامم اللاتينية بل تشاهد فى بلاد الصين لكونها محكومة أيضاً بنظام قوى من « المندران » والمندرانية تنال هناك كما هو الحال عندنا بطريق الامتحان وهو عندهم عبارة عن تلاوة الطالب كتباً ضخمة عن ظهر قلبه والصينيون الآن يرون فى جيش المتعلمين الذين لا عمل لهم طامة كبرى على الأمة. كذلك الحال فى الهند فمن يوم ان فتح الانكليز فيها المدارس لمجرد تعليم الوطنيين لا لتربيتهم كما يفعلون فى انكلترا ظهرت فيها طائفة مخصوصة من المتعلمين يقال لهم (بابوس) اذا لم يجدوا وظيفة انقلبوا عداء الداء أشداء ضد الحكومة الانكليزية

ومن الواضح ان الوقت قد فات لمقاومة هذا التيار وانما التجارب وهى آخر مرب للأمم ستظهر لنا خطأنا فهى التي تبرهن على ضرورة الاقلاع عن استعمال تلك الكتب الرديئة وابطال هذه الامتحانات التعسة واتباع طريقة تعليم فنى عملى يرد النشء الى المصانع والمعامل والمشروعات الاستعمارية وغير ذلك من الاعمال التى يجتهد أولئك النشء فى الهرب منها

هذا التعليم الفنى الذى تطلبه الآن العقول النيرة هو الذى تلقاه آباؤنا وهو الذى حافظت عليه الامم التى تحكم الدنيا بقوة ارادتها وبما أوتيت من الاقدام الذاتى فى الاعمال والقدرة على التصرف بالمشروعات

كتب أحد كبار المفكرين موسيو (تاين)صفحات فى هذا الموضوع ما أجلها وسأنقل للقراء طرفاً عنها فيما يلى فأبان باوضح برهان ان تربيتنا فى الماضى كانت تماثل التربية عند الانكليز أو الامريكان فى الوقت الحاضر أو ما يقرب من ذلك ثم أتى بمقارنة جميلة بين الطريقة اللاتينية والطريقة الانكليزية واعرب بافصح لسان عن نتائج الاثنتين

وكانت نتيجة التعليم سرعة انحطاط اخلاق جميع البابوس الذين دخلوا الخدمة منهم والذين لم يدخلوها وقد افضت الكلام عن ذلك فى كتاب (تمدن الهند) ولاحظه أيضاً جميع المؤلفين الذين زاروا تلك البلاد الواسعة

ولو كان الاكتساب السطحى لتلك المعارف الكثيرة واجادة تلاوة تلك الكتب التى لا عد لها مما يرقى ملكات العقل فينا لاجهدنا النفس لاحتمال مضار التربية التى تعودناها ولو لم تخرج الا عطلة ممتعضين فهل لها هذا الاثر ؟ لا والاسف ملأ قلبنا ان الادراك والتجارب والاقدام والخلق هى عدة الحياة ولا نجاح الا بها وليس شيء من ذلك فى الكتب. الكتب معاجم يستفيد المرء من مراجعتها لكن مما لا فائدة فيه نقل الفصول المطولة منها الى الدماغ

أما كون التعليم الفنى يربي العقل بما لا ينال من التربية العلمية الجارية فذلك ما شرحه مسيو (تاين) شرحاً وافياً إذ قال «لا تتولد الافكار الا فى مولدها الطبيعى الاعتيادى والذي ينبت بذورها هو المؤثرات الكثيرة المختلفة التى يتأثر بها الشاب كل يوم فى المصنع والمعدن والمحكمة ومكتب المحامى ودائرة الاشغال والمستشفى ومن مشاهدة الآلات والعدد والادوات ومن العمليات ومن اجتماع المبتاعين والفعلة ومن العمل نفسه ومما يصنع رديئاً كان الصنع أو حسناً غالى الثمن أو رخيصاً . هذه هى الملتقطات الصغيرة التى تتناولها العين والاذن أو الايدى أو الشم أيضاً التقاطاً غير مقصود حيث تجتمع وتختمر وتأخذ لها حيزاً

تنتظم فيه من نفس الشاب فترشده عاجلا أو آجلا الى تركيب جديد أو تبسيط مركب أو طريقة اقتصاد أو تحسين اختراع والشاب الفرنساوى محروم من هذا الامتزاج النفسى فقد غابت عنه كل هذه العناصر السهلة التناول الضرورية فى الوقت الذي هو أحوج للاستفادة منها لانه مقصور مدى سبع سنين أو ثمان في المدرسة بعيد عن التجارب الشخصية السهلة القريبة المنال التى تحصل فى الذهن صورة قوية صحيحة من الاشياء والناس وتكسب معرفة الطرق المختلفة لاستعمال ذلك كله فضاع على تسعة من العشرة وقتهم وتعبهم مدى سنوات ما كان انفعها وأكبر أهميتها بل قد كانت تكون الحد الفاصل بين بؤس ماض ومستقبل سعيد اليك أولا نصف الذين يتقدمون الى الامتحان أو الثلثين انهم لاينجحون وأخرج من بين الناجحين نصفهم أو ثلثيهم وهم الذين أبلاهم الدرس فلا يعودون ينفعون ، كلفوهم عالا يطيقون اذ طلبوا منهم يوم يجلسون على مقعد أو أمام لوحة أن يكونوا مدى ساعتين أشبه بمعجم يلقى على السامعين جملة من العلوم التى يبحث فيها عن جميع ما علم الانسان والواقع انهم كانوا ذلك أو ما يقرب منه مدة ساعتين ولكنهم لايبقون كذلك بعد مضى شهر من الزمان فلا يقدرون أن يجوزوا

الامتحان مرة أخرى لأن معارفهم كانت كثيرة كثيفة فتسربت من عقولهم ثم هم لا يكسبون منها جديداً لأن الملكات القت سلاحها ونضب ماء الاثمار منها اذ ذاك يبرز الشاب وعليه مخايل الرجل التمام وهو فى الغالب الرجل الذى قد فرغ منه. هذا الرجل يجمع اليه نفسه ثم يتزوج ويوطن النفس على أن يدور في دائرة معينة وأن يستقر على الدوران في الدائرة عينها وينزوى الى العمل الضيق الذى أقام فيه وصار يؤديه بانتظام ، ولا شيء بعد ذلك. هذه هى الثمرة فى المتوسط ولا شك فى أن الوارد لا يساوى المنصرف. أما فى انكلترا وفي أمريكا كما كان في فرنسا قبل سنة ١٧٨٩ فانهم يستعملون عكس ذلك وعندهم تساوى الثمرة ما صرف أو تربو عليه »

وبعد ذلك شرح لنا هذا المؤرخ المجيد الفرق بين طريقتنا وطريقة الانكليز السكسونيين فابان أن ليس لهؤلاء من المدارس الخصوصية الكثيرة مالنا ، وأن التعليم عندهم لا يتلقى من الكتاب بل من الشيء نفسه فالمهندس مثلا يتكون فى المصنع لا فى المدرسة وهو ما يسمح لكل واحد أن يصل فى حرفته الى الحد الذى تصل اليه قدرته العقلية فيكون عاملا أو رئيس عمال اذا قعد به الذكاء عند هذا القدر وهو مهندس اذا قاده استعداده

الى هذا الدرج . تلك هى الطريقة الديموقراطية المثلى وفيها الفائدة الصحيحة للأمة لا التى تجعل مستقبل المرء كله معلقا على نتيجة امتحان يؤديه الطالب وهو فى التاسعة عشرة أو المتممة للعشرين مدة سويعات معدودة قال موسيو (تاين) :

« يدخل التلميذ والعود أخضر فى المستشفى أو المعدن أو المصنع أو مكتب المتشرع فيتعلم ويقضى زمن التمرين كما يفعل كاتب المحامى أو المبتدئ فى الحرفة عندنا ويكون قد تلقى أولاً بعض دروس عامة مختصرة أوجدت فيه محيطاً نعشش فيه الملاحظات التى تعرض له من يوم دخوله ومع ذلك يجد كل يوم بجانبه دروساً فنية يختلف اليها فى أوقات الفراغ ويتمكن بما يستفيده منها من ترتيب تجاربه وتنسيقها كلما اكتسب شيئا منها ، هذا نظام تنمو فيه القدرة العملية وتتقدم من نفسها بحسب ماتسمح به ملكات التلميذ وتسير فى طريق العمل المستقبل الذى اختار التمرن عليه منذ الآن وبهذه الواسطة يتمكن الشاب بسرعة من أن ينتزع من نفسه كل ماملكت ويصير منذ الخامسة والعشرين وأحياناً قبل ذلك ان ساعدته كفاءته ومادته منفذا نافعا بل مبدئا مقداماً مندفعاً من ذاته فهو عجلة فى الآلة وهو أيضاً المحرك لها .

أما فى فرنسا حيث سارت الطريقة الاخرى وصارت تقرب من طريقة أهل الصين فى كل جيل فان مجموع القوى الضائعة عظيم »

ثم استنتج ذلك الحكيم الكبير مما تقدم النتيجة الآتية التى تدل على مخالفة تربيتنا اللاتينية لمقتضيات الحياة مخالفة تعظم كل يوم فقال « امتد زمن التحضير النظرى في أدوار التعليم الثلاثة: الطفولية والصبا والشباب وقد زادت المواد على حد الطاقة والتلميذ جالس على المقعد وعيناه فى الكتاب انتظاراً ليوم الامتحان يوم ينال الشهادة يوم تتقرر الرتبة يوم تعطى الاجازة أو الامتياز لا انتظاراً لشئ آخر وقد أعدوا لذلك أردأ الوسائل فاخضعوا التلميذ لنظام تأباه الطبيعة وتنفر منه دواعى الاجتماع فأجلوا التمرين العملى وقصروا التلامذة فى حجور المدارس وربوهم تربية جسمانية صناعية وشحنوا الذهن شحناً مادياً بالمواد واجهدوا الفكرة وكلفوهم فوق المستطاع غير ملتفتين الى المستقبل ولا مهتمين بسن الرجولة ولا بالوظائف التى لابد للطالب من القيام بها اذا اكتمل ولا ناظرين الى الوجود الحقيقى الذى أضحى على وشك الهبوط اليه ولا بالجمع المتلاطم الذى يجب تطبيعه بطبائعه أو إخضاعه لأحكامه قبل الانطلاق فيه ولا بالمعترك الانسانى

الذى يلزم المرء فيه أن يأخذ أهبته ويتقلد عدته ويتدرب ويتقوى ليتمكن من الكفاح ويبقى قائماً على قدميه . مدارسنا لا تكسب الشاب هذا المتاع على ضرورته وكونه أهم ما يجب أن يقتنى. لا تكسبه ملكة حسن التمييز ولا مكنة الارادة ولا صلابة الاعصاب بل على الضد من ذلك بدلا من أن تجهزه وتهيئه فانها تضعفه وتبعد وجه الشبه بينه هو ومستقبلة القريب المحتوم لذلك تراه غالباً يسقط فى أول خطوة يخطوها بين الناس ويكون فى بداية أمره كلما مد يده للعمل تولاه الكمد وأخذه الخزى زماناً طويلا وقد يصير كالاعرج ويبقى كذلك دائماً . تجربة قاسية ذات خطر تضطرب فيها الاخلاق ويختل ميزان العقل ويخشى من البقاء هكذا على الدوام فقد انكشف الستار وولى الخيال وعظم اليأس واشتد الأسى [1]

---

(١) راجع تاين (النظام الحالى جزء ٢ صفحة ١٨٩٤) وهذه الصفحات هى آخر ما كتب تاين تقريباً وفيها خلاصة تجارب ذلك الحكيم العظيم ولكنى مع الاسف أرى أساتذة مدارسنا الذين لم يقيموا زمناً خارج فرنسا لا يدركونها على أن التربية هى الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها التأثير فى نفس الأمة ومن سوء الحظ انه لا يكاد أحد عندنا يدرك أن طريقة التعليم التى نجرى عليها هى من أشد عوامل الانحطاط العاجل وأنها لا ترفع قيمة نشئنا بل تحط منه وتفسده

وبما يفيد القراء أن يجمعوا بين ما كتب (تاين) والمشاهدات المتماثلة

كأنى بالقراء يظنون انا قد بعدنا عن موضوعنا روح الاجتماع لكن مازلنا فيه لانه يجب علينا لمعرفة الافكار والمعتقدات التى تتولد الآن فى الجماعات ان نعرف كيف هيئت الأرض التي تنبت فيها فالتعليم الذى يعطى الأمة هو المرآة التى يرى فيها مصيرها يوما من الايام والذى يبذل منه الآن لشباننا يدل على مستقبل مظلم جداً . كذلك نفوس الجماعات إنما تتحسن أو تفسد من بعض الجهات بواسطة التربية والتعليم لهذا وجب أن نعرف كيف هيأت الطريقة المتبعة عندنا فى التعليم روح جماعاتنا وكيف أنها بعد ان كانت لاهية بنفسها أولا تشتغل بغيرها تحولت الى جيش كثيف من المتمضين مستعد لتنفيذ ما يشير به المتهوسون أهل التخيلات أو المتفيهقون تجار الكلام فالآن نحن نعلم أن الاشتراكيين والفوضويين يربون فى المدارس وأن فيها تحضر أوقات انحطاط الامم اللاتينية عما قريب

بالتربية فى امريكا التى ذكرها موسيو (پول بورجيه) فى كتاب (بحر آخر) فقد لاحظ هو أيضاً أن تربيتنا لاتخرج الا اواسط محدودة كفاءتهم فلا اقدام على العمل من انفسهم ولا ارادة فيهم أو فوضويين قال «وهما نموذجان تعسان للرجل المتمدن اذا خاب بانحطاط اخلاقه وعجزه أو فقد الرشد فصار آلة هدم وتخريب »ثم جاء بمقارنة جديرة بالامعان بين مدارسنا الفرنساوية التى هى مصانع اتلاف والمدارس التى تربى الرجل للحياة تربية تفوق الوصف هناك يتبين الفرق بين الامم الديموقراطية الصحيحة والتى ليس لها من ذلك الا ما جاء على ألسنة خطبائها لا الذى رسخ فى عقولهم

الفصل الثانى

العوامل القريبة فى أفكار الجماعات

(١) الصور والالفاظ والجمل — فما للالفاظ والجمل من القوة السحرية — فى أن قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التى تحدثها فى الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيق — فى أن تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — أمثلة على كثرة اختلاف معانى بعض الالفاظ المستعملة — الفائدة السياسية من إطلاق أسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت اسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً فى نفوس الجماعات — اختلاف معانى الالفاظ الواحدة باختلاف الامم — اختلاف معنى ديموقراطية فى أوروبا وفى أمريكا

(٢) — فى الاوهام — فى أهمية الاوهام — فى أن الاوهام موجودة فى أساس كل مدينة — ضرورة الاوهام فى الاجتماع — فى أن الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

(٣) — التجارب — يجوز أن تولد التجارب وحدها فى نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم اوهاماً ضارة — انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ماتقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) — العقل — عدم تأثيره فى الجماعات — فى انه لا يمكن التأثير فى الجماعات الا من طريق مشاعرها الغريزية — شأن المنطق فى التاريخ — فى الاسباب الخفية للحوادث الخارجة عن المعقول

فرغنا من البحث فى العوامل البعيدة التحضيرية التى تهيء نفوس الجماعات لظهور بعض الاميال والافكار وبقى علينا أن نبحث فى العوامل التى تؤثر فيها مباشرة وسنرى في الفصل الآتى

كيف نستعمل هذه العوامل لنظهر آثارها كلها

وقد بحثنا في القسم الاول من هـذا الـكتاب في مشاعر الجماعات وأفكارها ومداركها ، ومما عرفناه يسهل علينا غالباً استنباط الوسائل التى تؤثر فيها فنحن نعرف مما تقدم أي العوامل يفعل في تصوراتها ونعرف قوة المؤثرات وعدواها خصوصاً ما جاءها منها في شكل صور ترتسم في الخيال ولما كانت مناشيء المؤثرات مختلفة كانت العوامل التى لها قوة التأثير في نفوس الجماعات تتنوع كثيراً تبعاً لها لهـذا ينبغى الـكلام في كل واحد منها وليس البحث غير مفيد لان أحوال الجماعات تشبه بعض الشبه طلاسم الارصاد عند القدماء فاما أن نتمكن من حل طلاسمها وإما ان نستسلم لها فتأكلنا

١

الصور والألفاظ والجمل

تبين عند البحث في تصور الجماعات أنها تتأثر على الاخص بالصور وليست الصور ممكنة في كل وقت لـكن من السهل

استحضارها فى الذهن بالحذق في استعمال الالفاظ والجمل ومتى كان المستعمل لها بارعا فلها قوة السحر عند معتقديه في الزمن السابق فهي التى تثير فى نفوس الجماعات أشد صواعق الغضب وهى التى تسكنها إذا جاشت ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الألفاظ والجمل لأمكن أن يقام منها هرم أرفع من هرم خيوبس القديم .

السر فى تأثير الالفاظ للصور التي تحضر فى الذهن بواسطتها وليس لذلك التأثير ارتباط بمانيها الحقيقية بل الغالب أن أشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماماً مثال ذلك كلمات ديموقراطية، اشتراكية ، مساواة ، حرية ، وهكذا مما أبهم معناه ويحتاج فى تحديده إلى مؤلفات ضخمة والكل يسلم أن لها سلطانا ينساب في النفوس كأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية كلها وفيها تتمثل الاميال اللاشعورية على اختلافها والامل في تحقيقها

لبعض الالفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل . ألفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً أمام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنو الوجوه لها احتراماً وكثير يعتقدون أن فيها قوة إلهية . ألفاظ وجمل تثير فى النفوس صوراً لا كيف لها ولا انحصار محفوفة بالاكبار

والاعظام إبهامها يزيد في قوتها الخفية فهي آلهة لا تدركها الابصار قد احتجبت خلف (المظلة) التى ترتعد لهيبتها فرائص العابد إذا تقدم نحوها

ولما كانت الصور التى تستحضرها الالفاظ مستقلة عن معانيها كانت مختلفة باختلاف الاجيال والامم وان اتحدت صيغها ولبعض الالفاظ صور تتلوها على الاثر كأن الكلمة منبه إذا تحرك برزت صورته

ومن الالفاظ ماهو مجرد عن قوة استحضار صورة ما ومنها ماتكون له تلك القوة أولا ثم تبلى بالاستعمال فتفقدها تماما وتصير أصواتاً فارغة تنحصر فائدتها فى اعفاء المتكلم بها من التفكر والامعان ومن السهل على الانسان اذا حفظ في صغره قليلا من الالفاظ وشيئاً من الجمل المصطلح عليها ان يجتاز الحياة بها من دون احتياج إلى إجهاد نفسه بالفكر في أمر من أمور الدنيا

من تأمل في لغة من اللغات وجد أن الالفاظ التى تتركب منها لا تتغير مع الزمان إلا ببطء عظيم إنما الذى يتغير على الدوام هو الصور التى تلازم تلك الالفاظ والمعانى التى تؤديها ومن هنا قلت فى بعض مؤلفاتى أن ترجمة لغة بتمامها ضرب من المستحيل خصوصاً إذا كانت لغة أمة ميتة ونحن إذا ترجمنا إلى الفرنساوية

كلمة يونانية أو لاتينية أو سنسيكريتية أو أردنا فهم كتاب بلغتنا منذ قرنين أو ثلاثة فذلك عبارة عن إحلال الصور والمعانى المنتزعة من حياتنا الحاضرة محل صور ومعارف مغايرة لها بالمرة وكانت معروفة لأمم لانسبة بين حياتها وحياتنا . نقل رجال الثورة الفرنساوية عن الرومان وعن اليونان ألفاظاً وظنوا أنهم بذلك يقلدونهم فى نظاماتهم وهم إنما أثبتوا لالفاظ قديمة معانى ما كانت لها أبداً فأي شبه بين نظامات الاغريق ونظاماتنا وإن تقابلت الاسماء ألسنا نعلم أن كلمة جمهورية كانت تدل عندهم على نظام سداه الشرفاء ولحمته الشرفاء اجتمع فيه أفراد من صغار المستبدين وتحكموا فى قطيع من العبيد المسخرين . تلك جمعيات أشراف،قروية كان الرق قوامها ولولا الاسترقاق ما عاشت لحظة واحدة

وتلك كلمة الحرية أى شبه بين معناها الآن عندنا ومعناها قديماً عند قوم لم يمر بخاطر واحد منهم طائف الحرية فى الافكار أيام كان أكبر الجرائم النادرة الوقوع تطرق البحث إلى الآلهة أوالقوانين أوالعادات فى مدينة من المدن فكان معنى وطن عند أهل أثينا أو أهل اسبرطة تمجيد المدينة لا البلاد اليونانية لانها كانت مدائن متباغضة وفى حرب مستديم ولم يكن لهذا اللفظ

معنى عند أهل الغلوا الاقدمين وهم قبائل متنافرة وأجناس متغايرة وأهل لغات متنوعة وديانات شتى وقهرهم قيصر بدون عناء اذ كان له من بينهم حلفاء على الدوام وروما هى التى أوجدت وطن الغلوا بايجادها الوحدة السياسية والدينية فيها . مالنا ولذلك الزمن البعيد فمن قرنين اثنين لم يكن للفظ الوطن في نفوس الامراء الفرنساويين ما نفهم نحن منه الآن إذ كانوا يحاربون الاجنبي على ملكهم كما فعل البرنس كونديه ولا فى نفوس المهاجرين الذين كانوا يعتقدون أن الشرف وحفظ العهد يقضيان عليهم بمحاربة فرنسا وكانوا يعملون بهذا الاعتقاد لأن نظام حكم الشرفاء كان يربط التابع بالمتبوع لا بالبلاد التى هو منها فحيثما كان المتبوع يوجد الوطن

وما أكثر الالفاظ التى تغير معناها تغيراً كليا من جيل الى جيل ولم نعد ندرك معانيها الأولى الا مع الجهد والمشقة ولقد أصاب القائل بوجوب الاطلاع على كتب كثيرة للوقوف على ما كان يفهمه آباء أجدادنا من بعض الألفاظ مثل ملك وعائلة ملكية فما بالك بغيرها مما له معنى دقيق

نتج من هذا أن معانى الالفاظ غير ثابتة وأنها عرضية أى وقتية تتغير بتغير الاجيال وتختلف باختلاف الأمم فاذا أردنا

أن تؤثر فى الجماعات لزمنا أن نعرف معنى الالفاظ عندها وقت
تخاطبتها لامعناها القديم ولا الذى يفهمه منها من يختلف معها
في الفكر والمعقول

ومن أجل هذا متى تمت الانقلابات السياسية واستقرت
معتقدات مكان أخرى وتمكن بذلك نفور الجماعات من الصور
التى تحضرهـا من بعض الالفاظ وجب على رجال السياسـة
الجديرين بهذا الاسم أن يسارعوا إلى تغيير تلك الالفاظ من
دون أن يتعرضوا لتغيير المسميات لان هذه مرتبطة بمزاج القوم
الموروث ارتباطاً ليس من السهل تغييره

وقد لاحظ توكفيل منذ بعيد وكان نقاداً أن حيل أعمال
القنصلية والامبراطورية (في فرنسا) كان إلباس القسم الأكبر
من النظامات القديمة لباساً جديداً من الالفاظ أعنى الاعتياض
من ألفاظ أصبحت تؤدى فى الاذهان صوراً مكروهة بالفاظ
لاتثير فيها هذا التأثر لحدتها فسموا العوائد الشخصية ضرائب
عقارية والعونة ضرائب غير مقررة وهكذا

فمن أهم وظائف سواس الامم تسمية المسميات التى صارت
الجماعات لاتطيق سماع أسمائها المعروفة باسماء مقبولة أو على الاقل
لامقبولة ولا مكروهة لان قوة الالفاظ شديدة حتى انه يكفى

تسمية أشد الاشياء كراهة للجماعات باسماء مختارة لترضى بها ومن هنا لاحظ (تاين) أن اليعقوبيين تمكنوا باسم الحرية والمساواة وهما كلمتان محبوبتان في زمانهما عند الناس (من إقامة استبداد أحق به بلاد الداهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الاضطهاد واحداث مذابح فى الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك)

فالحكام كالمحامين يرجع فنهم إلى اختيار الالفاظ وحسن استعمالها وصعوبة هذا الفن ناشئة من كون معنى اللفظ الواحد يختلف غالباً باختلاف طبقات الامة الواحدة اختلافا كبيراً فهى وان استعملت الالفاظ بذاتها لا تتكلم مع ذلك بلغة واحدة .

رأينا في الأمثلة التى أتينا عليها أن الزمان هو أهم العوامل في تغيير معانى الالفاظ وكذلك تختلف المعانى فى الزمن الواحد اختلافا كليا عند الامم التى اختلفت فى الجنس وان تماثلت فى المدنية ومن المتعذر إدراك ذلك لمن لم يسبق له تطواف طويل فى الأمم فلا أطيل الكلام فيه ولكنى أشير إلى أن اختلاف المعانى واتحاد الالفاظ عند الامم المختلفة يكون بالاخص فيما يكثر استعماله منها على لسان الجماعات مثل لفظى ديموقراطية واشتراكية اللذين شاع استعمالها الآن

الافكار والصور التى تتحصل من هذين اللفظين تختلف

اختلافا بينا عند الجنسين اللاتيني والانكليزي السكسوني فمنى الديموقراطية عند الاول انزواء إرادة الفرد وإقدامه على العمل من نفسه أمام ارادة المجموع وهمته والمجموع تشخصه الحكومة [١] فالحكومة هي المكلفة بادارة كل شيء وحصر كل شيء واحتكار كل شيء وصنع كل شيء وهي التي تلجأ اليها دائماً الاحزاب بلا استثناء من أحرار إلى اشتراكيين الى ملكيين وعلى الضد من ذلك يفهم الانكليزي السكسوني وبالاخص الامريكي من كلمة ديموقراطية نمو إرادة الفرد واقدامه الذاتي الى الحد الاقصى وانزواء الحكومة بقدر ما أمكن فلا تكلف بعد الشرطة والجيش والعلاقات السياسية بشيء حتى التعليم وعليه فاللفظ الواحد يفيد في بلد جمود إرادة الفرد وسكون إقدامه الذاتي واستعلاء كلمة الحكومة ويفيد في بلد أخر انزواء هذه وارتفاع صوت الاول [٢]

---

(١) الحكومة هنا عبارة عن مجموع السلطات التي بيدها زمام الامر في البلاد

(٢) شرحت القول باسهاب في كتابي (ناموس تطور الامم النفسي) على الفرق بين الديموقراطية عند الامم اللاتينية والامم السكسونية وجاءت نتيجة بحث موسيو (بول بورجيه) في كتابه (بحر آخر) مطابقة على التقريب لما ذكرت وان كان بحثه مستقلا بذاته



الأوهام

خضعت الجماعات منـذ بزغ فجر المدنية لتأثير الأوهام فاقامت لموجـديها أكثر التماثيل والهيا كل والمعابد وما من حضارة تبلج صبحها فوق ظهر الارض إلا وكانت تلك الملوك الماثلة فى طليعة جيوشها أريد المعتقدات الدينية قديماً والسياسية والاجتماعية فى هذه الايام . هى التى شيدت هيا كل الكلدان ومصر وأقامت المساجد والبيع فى القرون الوسطى وهى التى قلبت القارة الأوروبية من الرأس إلى القدم منذ مائة عام وخاتمها مطبوع فى جبين كل ما أبرزه العقل من المستحدثات الفنيـة أو السياسية أو الاجتماعية يهدمها الانسان أحياناً ولـكنه يعاني في ذلك هول الانقلاب العنيس ثم هو محكوم عليه دائماً أن يقيمها من جديد فلولا هى ما خرج من بربرته الاولى ولولا هى لراح مسرعاً يتخبط في أودية الخشونة والتوحش.نعم هى خيالات باطلة وهى من نبات الاحلام ولـكنها هى التى ساقت الامم إلى إيجاد ما في الفنون من رفيع وجميل وما فى الحضارة من عظيم وجليل

قال(دانيال روزيار) لو أبيد ما فى دور العاديات او ما فى المكتبات العمومية وكسرت فوق بلاط مماشيها جميع التحف والاثار الفخمة التى أبدعتها الفنون والاديان ما بقى فى العالم شيء مما ولدته الاحلام وما كانت الآلهة والابطال ولا الشعراء الا لتحدث في النفوس شيئاً من الرجاء وبعضا من الخيال إذ لا حياة للناس بغير الامل والرجاء . حمل العلم هذه الامانة الثقيلة خمسين عاما ثم تغلبت عليه قوة الخيال لانه أصبح غير قادر على الوعد بادائها كلها عاجزاً عن الكذب الى النهاية .

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضى بهدم الاوهام الدينية والسياسية والاجتماعية التى عاش بها آباؤنا قروناً وأجيالا فلما ظهروا عليها كانوا قد افسدوا أيضا منابع الرجاء وأغلقوا باب احتمال القضاء وبرزت من خلف الخيال الذى خنقوه قوى الطبيعة العمياء الصماء التى لا تشفق على الضعفاء ولا تحنو على التعساء

سارت الفلسفة الى الامام شوطاً بعيداً ولكنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالا يلذ لها والجماعات لا غنى لها عن الاوهام لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت إلى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة تدب حيث يكون الضياء . إن الحقيقة لم تكن أبداً العامل الاكبر فى تطور الامم ولكنه

الباطل على الدوام . وإذا بحثت عن السبب في قوة مذهب الاشتراكية في عصرنا هذا وجدته ما اشتمل عليه من الخيال الذى لايزال حياً في المعقول فهو يعظم ويتجسم مع تزاحم أنوار العلم التي تبرهن على فساده ذلك لان قوته آتية من جهل دعاته بحقائق الاشياء جهلا كفياً يجرئهم على وعـد الناس بالسعادة في الحياة والآن أصبح هذا الوهم سائداً فوق اطلال الزمن الماضى وله الملك آجلا فما كانت الجماعات في ظمأ الى الحقيقة طول حياتها واذا تبدت امامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الاوهام التي ترضى الامرة عليها لمن أضلها والويل منها لمن هداها



التجارب

التجارب هى على التقريب الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة فى نفوس الجماعات وإزالة الاوهام التي عظم ضررها انما ينبغى أن تكون عامة ما أمكن وان تتكرر إذ تجارب جيل لاتؤثر غالباً فى الذي يليه ولذلك لاتصلح الحوادث التاريخية للدليل بل تصلح لبيان أنه يجب تكرار التجارب من جيل إلى جيل ليكون

بعض الاثر وليتوصل بها الى زعزعة الوهم المتأصل في نفوس الجماعة

ومن المحقق أن مؤرخى العصور الآتية سيكثرون من ذكر حوادث هـذا القرن والذى تقدمه لاحتوائها على تجارب لامثيل لها لان الناس لم يباشروا نظائرها فى زمن من الازمان

وأكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنساوية لانها تدل على اننا احتجنا الى قتل عشرة ملايين من الرجال واضرام نار الفتن والقلاقل فى أوروبا كلها مدى عشرين عاما لنعرف أن الامـة لاتخلق خلقاً جديداً بارشاد العقل وحده وقمنا بتجربتين منهكتين في خمسين عاماً لنثبت من طريق التجربة أن القياصرة تكلف الأمم التى تمجدها كلفة باهظة ومع انهما كانتا مشرقتين بالحجة على ما أرادوا يظهر انهما لم تعتبرا كافيتين للاقناع والاولى اقتضت بضعة ملايين من النفوس وغارة أجنبية على البلاد والثانية أدت إلى سلخ أقليم عنها وضرورة إيجاد جيش مستديم مع ذلك وكانت الثالثة على الابواب من عهد قريب وهى واقعة لامحالة يوماً من الايام وبالجملة كان لا بد من تلك الحرب الهائلة التي استنزفت ثروتنا لكى تقلع الامة كلها عن الوهم بان جيش الالمـان العرمرم لم يكن إلا عبارة عن حرس ملى [1] لاخوف منـه كما كانوا

---

(١) كان رأى العامة فى هذا الموضوع مبنياً على اجتماع النقيضين فى ذهنها

يوحون به عندنا منذ ثلاثين عاماً

ولو أردنا ان نبرهن للأمم التى تعمل بمذهب حماية التجارة الوطنية لتقييد التجارة الأجنبية للزمنا القيام بتجارب ضارة بثروتنا مدة عشرين عاماً ومن السهل الاكثار من الأمثلة على ماتقدم

٤

العقل

لولا الحاجة الى بيان ان لاتأثير للعقل فى الجماعات ما احتجنا الى ذكره بين العوامل التى تؤثر فيها لانا قدمنا ان البراهين

لما فصلناه من قبل فكان حرسنا الملى فى ذلك الزمن مؤلفاً من صغار الباعة أهل الدعة الذين لا يعرفون للنظام معنى ولا يمكن لذلك الاعتداد بهم فكان كل مسمى باسم كهذا يرتسم فى الذهن على الصورة التى عرفها من قبل ولا يتوجس الناس منه خيفة وكان خطأ الجماعات متعديا الى قوادها كما يقع ذلك غالباً بالنسبة للافكار العامة فقد رأينا موسيو (تيرس) يقول ماياتى ضمن خطابه الذى القاه على مجلس النواب فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٦٧ ونقله موسيو أوليفيه فى كتاب نشره حديثاً وكان ذلك القطب السياسى يتبع دائما افكار الجماعة الا انه لم يسبقهم فى فكر ابداً قال ناقلا «ليس لبروسيا غير جيشها العامل المساوى لجيشنا على التقريب الاحرس ملى يشبه الحرس الذى كان لنا وعليه لا أهمية له» وهى رواية تبلغ صحتها مابلغه رأى ذلك السياسى فى ضعف مستقبل السكك الحديدية .

والادلة لاتأخذ من نفوس الجماعات وانها لاتعقل الا بالمشابهات الرديئة ولهذا فان الخطباء الذين عرفوا كيف تتأثر انما يخاطبون شعورها دون العقل لانه لا سلطان لقواعد المنطق عليها [1] فلأجل اقناع الجماعة ينبغى الوقوف أولا على المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها ثم يحاول الخطيب تعديلها باستعمال مقارنات بسيطة عادية تشخص امامها صوراً مؤثرة وينبغى ان يكون مقتدراً على الرجوع القهقرى متى وجد المقتضى وان يتفرس فى

---

(١) ترجع ملاحظاتى فى فن التأثير فى الجموع وضعف قواعد المنطق فى هذا الموضوع الى زمن حصار (باريس) رأيت ذات يوم اناساً يسوقون أحد قواد الجيش العظام الى سراى اللوفر حيث مقر الحكومة والناس أكداس من حوله يزمجرون و يتميزون غيظاً وهم يتهمونه بانه كان يأخذ رسم أحد المعاقل ليبيعه للبروسيانين فلما وصلوا به خرج أحد أعضاء الحكومة وكان خطيباً ذائع الصيت ليخطب فى الناس وهم ينادون الموت الموت عاجلا وكنت انتظر منه ان يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله ان الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين اقاموا الحصون وان رسومها تباع فى المدينة عند جميع باعة الكتب غير انى بهت ـ كنت شابا فى ذلك الحين ـ اذ سمعته على نقيض ماظننت يقول وهو يتقدم نحو الجموع « سيأخذ منه العدل أخذاً لارحمة فيه فاتركوا حكومة الدفاع عن الامة (١) تتم التحقيق الذى بدأتموه وسنزجه فى السجن حتى حين » قال هذا فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع ولم يمض ربع ساعة إلا والفريق فى داره ولو أنه خاطبهم بما جال بخاطرى من الادلة المنطقية التى اعتقدتها دامغة لمزقوه إربا

---

(١) هو اسم الحكومة فى ذلك الحين

كل لحظة أثر كلامه فى نفس سامعه حتى يغير منه كلما مست الحاجة. وهذه الضرورة التى تلجئ الخطيب إلى سرعة تغيير الكلام بحسب الاثر الحاصل فى نفس السامع هى التى تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل لان الخطيب يتبع فى هذه الحالة سلسلة أفكاره لا حركة فكر سامعيه فلا يكون لكلامه أقل تأثير عندهم. أما المناطقة فلأنهم تعودوا الاقتناع بالادلة المتسلسلة الدامغة لا يمكنهم الخروج عن عادتهم هذه في مخاطبة الجماعات لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم قال بعض هؤلاء المنطقيين « ان للقياس المنطقى أعنى الجمع بين الشىء ونظيره فى الاستدلال نتيجة لازمة لاتتخلف عنه وهذا اللزوم يقتضي التسليم حتى من المادة لو أن فيها قدرة على أن تتمثل النظائر » وهو مسلم غير أنه لا فرق بين الجماعة والمادة فى عدم إدراك النظائر بل في عدم القدرة على سماعها ومن لم يصدق فليجرب اقناع الهمجى أو المتوحش أو الصبى بالحجة العقلية والدليل المنطقى وهو يقتنع بضعف تأثير هذه الطريقة في اقناعهم .

على أنه لاداعى للتجربة فى الهمجى لمعرفة عدم تأثير الادلة العقلية متى عارضت الشعور ويكفينا أن نذكر كم من القرون أمسكت الاوهام الدينية بالعقول على مابها من مخالفة قواعد

المنطق الابتدائية وان أكبر الناس عقلا وأسماهم فكرا أتوا تحت حكمها ألفي عام وبقي الحال هكذا حتى جاء هذا الزمان وأمكن البحث في صحتها ولقد كان أصحاب العقول النيرة كثيرين في القرون الوسطى وزمن النهضة الفكرية ومع ذلك ليس منهم من هدته الحجة وأرشده الدليل إلى ما كان في الاوهام التي استولت على قلبه من الهزء والشطط أو شك يوما في صحة إساءة الشيطان أو في ضرورة إحراق الساحرين

رب سائل أنما يوجب الاسف أن العقل ليس هو الذي يهدى الجموع على الدوام نحن لا يسعنا أن نقول به بل نرى أنه لو كان الهدى للعقل ما اندفعت الانسانية في سبيل المدنية والحضارة بالهمة التي أوجدتها الخيالات والاوهام . فليس لنا غنى عن الاوهام لانها نبات الغرائز

كل شعب يحمل في كيانه العقلي نواميس مآله في الوجود والظاهر أنه يسير محكوما بتلك النواميس وانه ينقاد لحكمها بفطرة لا مقدور له فيها حتى في نزعاته التي يرى انها خارجة عن كل معقول كذلك يظهر احيانا ان الامم مدفوعة بقوى خفية مثل التي تجعل بذرة البلوط شجرة كأمها أو التي تدور بها (ذوات الاذناب) في دائرتها

على أنه لا يسعنا أن نعرف الا قليلا من تلك القوى وذلك بالبحث عنها فى حركة تطور الامة العمومية لا فى الحوادث الفردية التى يخال انها سبب ذلك التطور اذ لو قصرنا النظر على هذه الحوادث لظهر أن التاريخ يتكون من مصادفات غير معقولة بالمرة فلقد كان مما لا يصدقه العقل ان نجاراً جاهلا هو (غاليليه) [١] يصير مدة ألفى عام كأله جلت قدرته يؤسس باسمه أم أركان المدنيات فى الدنيا . وكان مما لا يصدقه العقل ان عصابات من العرب تندلع من صحاريها وتبسط فتوحاتها على القسم الاكبر من الدنيا القديمة التى عرفها اليونان والرومان وتختط مملكة فاقت ضخامتها مملكة الاسكندر. كذلك كان مما لا يتصوره العقل أن يقوم ضابط صغير فى أوروبا التى لها قدم راسخة فى التاريخ وأهلها طبقات منظمة بعضها فوق بعض ويتمكن من السيادة على جميع أولئك الملوك وتلك الامم

اذن لندع العقل للحكماء ولا نطلبن منه أن يتداخل كثيراً فى حكم الامم فما بالعقل بل على الرغم منه فى غالب الأحيان تولدت مشاعر مثل الشرف وإنكار الذات والايمان بالدين وحب المجد والوطن وهى الصفات التى كانت ولا تزال أقوى دعائم المدنيات كلها

(١) كذا فى الاصل لانه ولد سنة ١٥٦٤ وتوفى سنة ١٦٤٢

الفصل الثالث

قواد الجماعات وطرقهم فى الاقناع

(١) قواد الجماعات ـ حاجة الجماعات الفطرية الى قائد تطيعه ـ روح القواد ـ القواد هم الذين يمكنهم وحدهم إيجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات ـ استبداد القواد نتيجة لازمة ـ انواع القواد ـ شأن الارادة

(٢) وسائل التأثير التى يستعملها القواد ـ التوكيد والتكرار والعدوى ـ تأثير كل واحد من هذه العوامل ـ كيف ترتقى العدوى فى الامة من الطبقة السفلى الى الطبقة العليا ـ فى ان الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاما

(٣) النفوذ ـ تعريف النفوذ وأنواعه ـ النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى أمثلة متنوعة ـ كيف يزول النفوذ

نحن الآن نعرف تركيب الجماعات الفكرى والعوامل التى تؤثر فى نفوسها بقى علينا أن نذكر كيفية استعمال هـذه العوامل ومن الذي يمكنه استعمالها استعمالا مفيداً .



قواد الجماعات

ما اجتمع عدد من الاحياء سواء كان من الحيوان أو من

بني الانسان إلا جعل له بمقتضى الفطرة رئيساً

والرئيس في الجماعات البشرية عبارة عن قائد في الغالب إلا أن له بذلك شأناً كبيراً تجتمع الافكار وتتحد حول إرادته وهو الركن الاول الذى يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها لان تصير طائفة خاصة

والعادة أن القائد يكون قبل ذلك مقوداً . أعنى انه كان مسحوراً بالفكرة التى صار هو الداعى اليها حتى استولت عليه استيلاء لا يرى معه الا ما كان منها وان كل ماخالفها وهم وباطل كما جرى للزعيم (روبسبير) أسكرته أفكار (روسو) فقام يدعو اليها . واستعمل الاضطهاد وسيلة لنشرها

ليس القواد غالبا من أهل الرأى والحصافة بل هم من أهل العمل والاقدام وهم قليلو التبصر . على أنه ليس فى قدرتهم أن يكونوا بصراء . لان التأمل يؤدى غالبا الى الشك ثم الى السكون وهم يخرجون عادة من بين ذوى الاعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية الى النصف وأمسوا على شفا جرف الجنون . لاينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا . ولا تثنيهم حجة عن طلب ماقصدوا بالغا منه الخطل مابلغ . ولايؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد بل ذلك يزيدهم تهوسا

وعناداً . حتى انهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلايبتغون في الغالب أجراً على عملهم الا أن يكونوا من ضحاياه . تزيد شدة اعتقادهم في قوة تأثير أقوالهم . والجموع تصغى دائما الى قول ذى الارادة القوية الذى يعرف كيف يتسلط عليها . ومتى صار الناس جماعة فقدوا ارادتهم والتفوا كلهم حول من كان له شئ منها

وُجد القواد فى الامم على الدوام . غير انهم ليسوا جميعا من أهل الاعتقاد الصادق الذى يصير به المرء رسولا فى قومه . بل هم فى الغالب قوالون سوفسطائيون لايسعون الا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم وقد يكون النفوذ الذى ينالونه بهذه الوسائل كبيرا جدا الا انه سريعُ الزوال . أما أصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات وحركوها مثل (بطرس الراهب) و (لوثر) و (سافونارول) ورجال الثورة الفرنساوية وغيرهم فانهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الارواح الا بعد ان سكروا بخمر المذهب الذي اعتقدوه . وبذلك توصلوا الى توليد تلك القوة الهائلة فى النفوس وهى التصديق الذى يجعل المرء عبداً لخياله

كان عملَ قواد الجموع على الدوام خلقُ الاعتقاد فى النفوس لافرق بين أن يكون دينيا أو سياسيا أو اجتماعيا . ولاأن يكون

محله عملا أو انسانا أو رأيا . بهذا كان تأثيرهم عظيما جداً . لان الايمان أكبر قوة فى تصرف الانسان . وقد صدق الانجيل فى قوله إنه يزحزح الجبال عن مواضعها . فمن كان مؤمنا زادت قوته عشر أمثالها . والذى قام بأكبر حوادث التاريخ أفراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم من الحول الا الايمان . وليس المستبدون ولا الفلاسفة ولا أهل البأس على الاخص هم الذين أقاموا الاديان الكبرى التى سادت على الدنيا . واختطوا الممالك الشاسعة التى امتدت فوق السطحين

غير أن الامثلة التى ذكرناها تختص بقواد عظام يندر ظهورهم فمن السهل على التاريخ حصرهم . وهم رأس سلسلة تتدلى من أولئك القواد العظام الى العامل الذى يقف في قهوة أطبق الدخان فى سمائها ويسترعى اسماع اخوته وهو يلوك صيغا حفظها من دون أن يدرك معانيها . ولكنه يؤكد ان فى العمل بها تحقيق جميع الامانى والآمال

لا يلبث الانسان أن يقع تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة الى الجماعة ذلك أمر واقع فى جميع الطبقات ارقاها وأدناها فاما افراد طبقة العامة فان الواحد منهم متى خرج عن حرفته أو مهنته لا تجد عنده فكراً واضحا في أمر من الامور . وكلهم

كفء لقيادة ذاته . ومرشدهم هو القائد وربما أمكن الاستعاضة عنه بتلك الصحف الدورية التي تصنع لقرائها أفكاراً وتحصل لهم جملا مصوغة تغنيهم عن التفكير إلا أن البدل لا يقوم مقام الاصل تماماً

من لوازم سلطة القواد أن تكون مستبدة على أن استبدادهم هو علة سيادتهم وقد لوحظ كثيراً أن فيهم مقدرة على اطاعة طبقات العمال الذين هم أشد عربدة وأصعب مراساً مع تجرد أولئك القواد من كل شيء يستندون عليه في سلطتهم . فهم يحددون ساعات العمل ويقررون الاعتصابات وينفذونها بعيقات وينقضونها بعيقات

قواد هذه الايام صائرون إلى الحلول مكان السلطات الحاكمة كلما تركت هي الناس يبحثون فيها ويضعفون من نفوذها وتعسف المولى الجديد وظلمه يجعل الجماعة تطيعه بسهولة أكثر مما أطاعت حكوماتها وإذا حدث حادث اختفى بسببه القائد ولم يول الخلف على الأثر تصبح الجماعة جمهوراً مفكك الاجزاء ولا قدرة فيها فلما اعتصب عمال شركة الامنيبوس اعتصابهم الاخير في باريس وقبض على الرئيسين اللذين كانا القائدين بطل الاعتصاب لساعته إنما الحاجة التي يشتد شعور الجماعة بها هي الخضوع لا الحرية

وقد بلغ منها الظمأ إلى الطاعة انها تخضع بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها

تنقسم القواد إلى فريقين ممتازين فقواد أولو عزم وارادة قوية لكنها وقتية . وقواد ذوو إرادة جمعت بين القوة والدوام وهؤلاء قليلون والفريق الاول أصحاب حدة ونزق وشجاعة وأقدام . وهم على الاخص نافعون في تنفيذ مادبر أو كسب الجموع بلا خوف من الخطر وفى جعل الجبان بطلا مغواراً ذلك مثل (ناى) و (مورات) زمن الامبراطورية الاولى ومثل (غاريبالدي) في عصرنا هـذا فانه كان رجلا هجوما لا ذكاء فيه لكن ذا عزم ومضاء . وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستيلاء على مملكة (نابولي)القديمة على رغم الجيش المنظم الذى كان يحميها

عزيمة أولئك القواد على قوتها قلما تبقى بعد زوال السبب الذى دعا اليها . وكثيراً مايبرهن الذين تجملوا بهـا على ضعف مدهش متى عادوا إلى حياتهم الاعتيادية ،كالذين ذكرناهم.فتراهم لاتستطيعون التصرف في أصغر الحوادث مع كونهم كانوا ماهرين في تصريف غيرهم.أولئك قوادلايمكنهم القيام بوظائفهم إلا اذا كانوا أنفسهم مقودين وكان لهم مهيج على الدوام واستولت عليهم يد أو فكر من الافكار وساروا في طريق مرسوم من قبل

أما الفريق الثانى من القواد وهم ذوو الارادة الثابتة فان تأثيرهم أعظم بكثير وان كانوا أقل ظهوراً فى الشكل وهم الذين نبغ من بينهم أصحاب الاعمال الكبيرة كالقديس (بولص) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) و (كريستوف كولومب) و (دولسبس) وسواء كان قواد هذا الفريق من الاذكياء أو الاغبياء لهم الدنيا أبد الآبدين لان الارادة الثابتة التى اتصفوا بها ملكة نادرة الوجود لكنها قوية يخضع لها كل شئ الا أن الناس لايدركون دائماً ماعسى أن يكون من وراء الارادة القوية المستمرة فالذى يكون من ورائها هو أنه لاشئ يقف أمامها حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال

وأقرب الامثال على ماتأتى به الادارة القوية الثابتة هو ذلك الرجل العظيم الذى فصل الدينين . وأنجز عملا قصرت عنه همة أكبر الملوك منذ ثلاثة آلاف عام . نعم لم ينجح بعدذلك فى عمل يضارع هذا العمل . لكن الشيخوخة كانت قد أدركته وكل شئ ينطفئ أمامها حتى الارادة

من أراد بيان ماتأتى به الارادة وحدها فما عليه الا أن يذكر العقاب التى ذللت لفتح قناة السويس . وقد لخص الدكتور (كزاليس) وهو من شهود الحال فى أسطر تسحر الالباب

تاريخ ذلك العمل المجيد نقلا عن صاحبه الذى خلد التاريخ ذكره فقال «كان - يعنى دلسبس - يقص علينا حيناً فحيناً حوادث القناة مرحلة بعد أخرى . فحكى لنا مالاقى من الصعاب التى ذللها . وكيف جعل المستحيل ممكناً وروى المقاومات التى صادفته والتحزبات التى اعترضته والياس الذى كان قد استولى على قلبه والخيبة التى كان يؤوب بها وكيف ان ذلك كله لم يكن ليثنى عزيمته . ولا ليضعف من ارادته . وكان يذكر انكلترا وهى تحاربه وتحمل عليه الحملة بعد الحملة . وفرنسا ومصر مترددتان والعميد الفرنساوى أشد الجميع معارضة فى البدء بالعمل . حتى أنه لما رأى عدم الامتثال أنحى على العمال بالعطش فسعى فمنع عنهم الماء الفرات ولا ننسى أن ناظر البحرية وفريق المهندسين والناس من رجل الجد وذى الخبرة وصاحب العلم كلهم خصماء . وكلهم مقتنعون علماً بان الخيبة محتمة يحسبون سيرها ويحددون يوم حلولها كما ينبأ بالكسوف أو الخسوف »

ان الكتاب الذى يضم سيرة أولئك القواد العظام لايكون فيه عدد كثير من الاسماء لكن تلك الاسماء هى التي كانت على هامة أكبر حوادث الحضارة والتاريخ

٢

وسائل القواد فى التأثير

التوكيد والتكرار والعدوى

اذا مست الحاجة الى قيادة جماعة وحملها على عمل من الاعمال كاحراق قصر أو الاستماتة فى الدفاع عن حصن أو معقل وجب التأثير فيها بخواطر سريعة . والأمثولة أشد ذلك تأثيراً فى نفوسها الا أنه يجب أن تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتأثر وأن يكون من يريد تحريكها حائزاً للنفوذ وسيأتى الكلام فيه

لكن اذا كان الغرضُ بثّ أفكار فى عقولها أو معتقدات فى نفوسها كالافكار الاشتراكية العصرية فالوسائل غير ماتقدم وأخصُّ مايستعمله القواد منها ثلاث : التوكيد . والتكرار . والعدوى . ولذلك تأثير بطيء الا أنه متى انبث فيها المطلوب لزمها زمناً طويلا

فاما التوكيد فانه من أهم العوامل لبث الفكر فى نفوس الجماعات متى كان بسيطاً خالياً من التعقل والدليل . وكلما كان

التوكيد موجزاً ومجرداً عن كل ماله مسحة الحجة والتقرير كان عظيم التأثير . هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد فالتوكيد قيمتـه يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسى وأهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها

الا أن قيمة التوكيد هى بدوام تكراره بالالفاظ عينها ما أمكن ذلك . وأظن أن نابليون هو القائل بان أهم صيغ البيان التكرار فاذا تكرر الشئ رسخ في الاذهان رسوخا تنتهى بقبوله حقيقة ناصعة

للتكرار تأثير فى عقول المستنيرين وتأثيره أكبر فى عقول الجماعات من باب أولى . والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الانسان . فاذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر . وهذا هو السر فى تأثير الاعلانات العجيب . يقرأ الواحـد مائة مرة ان أحسن الحلوى ما كان من صنع زيد فيخيل اليه من التكرار انه سمع ذلك من مصادر شتى وينتهى باعتقاد صحة الخبر . ويقرأ ألف مرة ان دقيق فلان شفى أعاظم القوم من مرض عضال فيميل الى التجربة ان

أصيب بمثل المرض المذكور . ويقرأ كل يوم في الصحف ان زيداً من الانذال وعمراً من الفضلاء فينتهى باعتقاد ذلك الا اذا كان يقرأ دائماً فى جريدة أخرى مايخالفه فانه لايغفل التكرار الا التكرار

ومتى كثر تكرار أمر وأجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكري يتلوه ذلك المؤثر العظيم أى العدوى كما وقع ذلك فى بعض المشروعات المالية الشهيرة التى تمكن أصحابها بثروتهم من كسب كل قادر على معونتهم لان للافكار والمشاعر والتأثرات والمعتقدات عدوى فى الجماعات تماثل فى قوتها عدوى المكروبات وذلك أمر طبيعى لوجوده فى الحيوانات متى اجتمعت فالفرس يقبع فى مربطه فتفعل فعله الخيل كلها . وتجزع الشاة أو تضطرب فى حركتها فتفعل الغنم مثلها . كذلك لحركات الانسان فى الجماعة عدوى سريعة جداً وهذا هو السبب فى سرعة انزعاج الكل لفزع الواحد بينهم . حتى ان اختلال القوى العقلية معد، وكثير ماهم أطباء المجانين الذين جنوا . وشاهد بعضهم نوعا من الجنون تنتقل عدواه من الانسان الى الحيوان

ولا يجب فى العدوى وجود الافراد الكثيرين فى مكان واحد بل يجوز أن تحصل عن بعد من الحوادث التى تتحد لاجلها

وجهة أفكار المتأثرين بها فتجعلهم بذلك كالجماعة لاسيما اذا كانت النفوس مهيأة من قبل باحد العوامل البعيدة التي مرّ ذكرها .

ذلك ما كان من ثورة سنة ١٨٤٨، فانها ابدأت فى باريس وما عتمت ان امتدت الى قسم كبير من أوروبا وهزت أركان كثير من الممالك

قالوا إنّ لحب التقليد تأثيراً كبيراً في الناس وليس التقليد الا أثراً بسيطاً من العدوى . وقد بينت أثر التقليد منذ خمس عشرة سنة فى غير هذا الكتاب فأكتفى بايراد ماقلته اذ ذاك مما شرحه بعد ذلك الكتاب حديثاً

« الرجل شبيه بالحيوان يميل بطبعه الى التقليد . فالتقليد من حاجاته على شرط سهولته . وهذه الحاجة هى التى تجعل للبدع (المودة) تأثيراً كبيراً . والقليل من الناس لا يقلد سواء كان ذلك فى الافكار أو الآراء أو الادبيات أو اللباس لان الذى تقاد به الجماعات هو المثال لا البرهان . ولكل عصر أناس قليل عددهم يستحدثون البدع فيقلدهم أبناء عصرهم فيها وانما يشترط أن لا يبتعد المبتدع كثيراً عن المألوف حتى لا يصعب التقليد فيضعف تأثير المبتدع ولذلك لم يكن للذين فاقوا عصرهم من كبار الرجال تأثير فى قومهم الا نادراً لبعد البون بينهما . ومن هنا قل تأثير الاوروبى فى الشرقى مع ما للاول من المزايا المدنية لان الخلف شديد بين الرجلين

يتشابه أهل كل عصر فى أمة بتأثير الزمن وتبادل التقليد حتى الذين يخيل أنهم متفاوتون كالحكماء والعلماء والادباء فانك ترى على أفكارهم ومايكتبون صبغة عشيرة واحدة تدلك فى الحال على انهم أبناء عصر واحد . ولا يلزم أن يطول الحديث مع رجل لمعرفة الدرس الذى يصبو اليه والعمل الذى اعتاده . والبيئة التى يختلف اليها » [١]

ويبلغ تأثير العدوى إلى حد أنه يتعدى توحيد الافكار إلى توحيد كيفية التأثر بالحوادث . فالعدوى هي التى تنفر من الشيء فى وقت من الاوقات ثم ترغب فيه ثانية من كان أشد الناس بغضاً له كما وقع في (تانهاوزر) [٢]

والعدوى هى الاصل في انتشار أفكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين فنى الخمارة تتولد أفكار الفعلة من طريق التوكيد والتكرار والعدوى . وقليلا ما تولدت أفكار الجماعات في كل عصر من غير هذا الطريق . وقد أصاب (رنان) [٣]

---

(١) راجع كتاب الانسان والهيئة الاجتماعية لمؤلفه جوستاف لوبون سنة ١٨٨١ جزء ٢ ص ١١٦

(٢) رواية وضعها وجنر نفر الناس منها أولا ثم أعجبوا بها

(٣) حكيم مشهور بفرنسا فى أواخر القرن الماضى وكان قسيسا فى مبدأ أمره وهو صاحب الكتاب المعروف المسمى (حياة المسيح)

إذ شبه مؤسسى النصرانية الاولين « بالفعلة الاشتراكيين الذين ينشرون مبادئهم من خمارة إلى أخرى » وقال فولتير [١] قبل ذلك بالنسبة للديانة المسيحية « أنها استمرت لايدين بها إلا أخس الناس مدة مائة عام »

ويؤخذ من الامثلة المتقدمة أن العدوى فى مثل تلك الاحوال تبتدىء فى الطبقات النازلة ثم تصعد منها إلى الطبقات الرفيعة ونحن الآن نشاهد هذه الظاهرة فى مذهب الاشتراكيين لانه بدأ يمتد بين الذين يخال أنهم سيكونون أول ضحاياه . لكن قوة العدوى شديدة بحيث يضعف أمامها أثر المنافع الذاتية

هذا هو السبب فى أن الفكر إذا انتشر بين طبقات العامة لابد له من الانتشار أيضا بين طبقات الامة إلى أرفعها وان كان فاسداً بعيداً عن الصواب . وهنا رد فعل يتسرب من الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا. وذلك من أغرب المشاهدات الاجتماعية لان الافكار العامة لاتأتيهم دائماً إلا من أفكار عالية تختلف عنها أثرها في البيئة التي ولدت فيها فيتناولها قائدو الجماعة بعد أن تتمكن منهم ويشوهونها ثم يؤلفون فئة تزيد فى تغييرها . ثم يبثونها فى الجماعات وهذه تضاعف التغيير . ثم

---

(١) اشهر كتاب الفرنساويين فى القرن الثامن عشر

تصير حقيقة عنـد العامة وبعد ذلك تصعد إلى منبعها فتتمكن من نفوس الطبقة العالية . وعلى هذا يكون العقل هو الذي يحكم الدنيا ولكن من بعد باعد . فقد تفنى عظام الحكماء الذين يوجدون الافكار وتصير ترابا ويمر عليها كذلك الزمن الطويل قبل أن تسود الافكار التى أوجدوها

٣

النفوذ

مما يساعد كثيراً على قوة تأثير الافكار التى بثت فى الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونها تنتهى باكتساب قوة خفية تسمى النفوذ

للنفوذ قوة لا تقف أمامها قوة أخرى . وكل سلطة سادت فى الوجود سواء كانت سلطة الافكار أو الرجال فهو السبب فى قيامها وسيادتها . والنفوذ كلمة يعرف الجميع معناها ولكنها تستعمل استعمالات كثيرة . ولذلك لم يكن من السهل تعريفها . وقد يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالاعجاب أو الرهبة . وربما كان الاثنان أصلا له في أحوال كثيرة . إلا أنه قد يوجد بدونهما مثل نفوذ الذين ماتوا فانه لا محل للخوف منهم . ودليل ذلك أن

أكثر من نشعر بنفوذه فيناهم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار ولم نعد نخاف منهم مثل الاسكندر وقيصر ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وبوذا. كذلك لبعض الكائنات أو البدع تأثير في النفوس وإن كان مما لا يعجب به كالآلهة المنغوليين الذين يوجدون فى معابد الهند التى تحت سطح الارض

يمكن أن يقال إن النفوذ عبارة عن سلطة رجل أو عمل أو فكر يستولى بها على العقول. وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملأ النفس اندهاشاً واحتراماً. ولا يمكن تفسير الشعور الذى يحدث منه كما هو الشأن فى كل شعور. إلا انه لابد أن يكون من جنس الاجتذاب الذى يحدث فى نفس الشخص النائم نوماً مغناطيسيا. والنفوذ أعظم مقوّم لكل سيادة في العالم إذ لولا هو ما ساد الآلهة والملوك والنساء

ثم إن النفوذ أنواع يمكن حصرها في قسمين: النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى. فالاول هو الذى يرجع لاسم صاحبه أو ثروته أو شهرته. وقد يكون منفصلا عن النفوذ الشخصى. وأما النفوذ الشخصى فهو أمر ذاتي قد يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة ويشتد بانضمامها اليه وقد يكون وحده

وأكثر النوعين شيوعا هو النفوذ المكتسب أو العرضى فهو يثبت للرجل بمجرد كونه يشغل مركزا أو يملك ثروة أو يتحلى ببعض الالقاب وان لم يكن له قيمة من نفسه فللجندى في لباسه وللقاضى في زيه الرسمى نفوذ ما ارتديا لباسهما . ولذلك قال (باسكال) بضرورة الجبّة والشعر للقضاة [1] ولولا الجبة والشعر لفقدوا ثلاثة أرباع نفوذهم ولا يزال الاشتراكى كيفما اشتد جفاؤه يشعر بشيء من الاضطراب إذا رأى أميراً أو عظيما من الشرفاء ويكفى أن يكون هـذا اللقب لرجل ليتمكن من النصب على التاجر فيما يشاء

والنفوذ الذى أشرنا اليـه خاص بالانسان . وبجانبه يوجد

---

(١) للالقاب والاوسمة والشارات تأثير فى الجماعات فى كل بلد حتى التى يبلغ فيها استقلال الفرد وحريته ارفع الدرجات . وانى أنقل هنا جملة غريبة من كتاب حديث نشره أحد السياح بيانا تأثير النفوذ بعض العظماء فى انكلترة قال « لاحظت مراراً ان اجتماع احد الحائزين لقب (پير) مع اكبرهم عقلا وتمييزاً يحدث فى نفوس هؤلاء شعوراً يكاد يكون سكراً من نوع خاص . فمتى كان له من اليسار ما يرتكز عليه لقبه فهم يحبونه قبل ان يروه . فاذا التقوا به تلقوا منه كل شئ فرحين . تحمر وجوههم سروراً بمقدمه . فاذا خاطبهم كتموا جذلهم فيشتد احمرار الوجنتين . ويظهر فى العينين بريق غير معهود . اللوردية فى دمهم كالرقص عند الاندلسى والموسيقى عند الالمانى والثورة عند الفرنساوى . شهوتهم فى الخيل وشكسبير اقل من شهوتهم فى الشرفاء وارتياحهم وتيههم لهؤلاء أكبر . كتاب تلك الرتبة عندهم فى رواج وهو كالتوراة موجود عند كل انسان

النفوذ الذى يكون للافكار أو الاديبات أو الفنيات وغير ذلك وهو فى غالب الاحوال ناشيء من التكرار وما التاريخ وبالاخص تاريخ الآداب والفنون إلا تكرار رأى سبق ولم يعارضه أحد فيؤول الامر إلى أن كل واحد يكرر ما قرأ في المدرسة ووجدت بذلك أسماء وأشياء لايجرأ أحد على الحديث فيها فما لاشبهة فيه أن مطالعة « هومير » تورث قراء هذا الزمان مللا شديداً إلا أنه لايجرأ أحد على القول به و « البارتينون » أصبح اليوم خرابة تراكمت فيها الانقاض ولا فائدة منها . إلا أن نفوذه لا يزال قوياً حتى أنهم لايبصرونه كما هو الآن بل كما كان فى القدم محفوظا بابهته وفخامته فمن خواص النفوذ أن لا يجعل الانسان يرى الشيء على حقيقته وأن يعطل فيه ملكة النقد والتمييز

تحتاج الجماعات دائما والافراد غالباً إلى آراء حاضرة في جميع المباحث وانتشار هذه الآراء غير مرتبط بما اشتملت عليه من الصواب أو الخطأ بل مرجعه مالها من النفوذ

ننتقل الآن إلى النفوذ الشخصى وهو يختلف مع النفوذ المكتسب لانه صفة تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصف بها أفراد معدودون فيبهرون بها نفوس من حولهم ويجذبونها اليهم كالمغناطيس وإن ساووهم فى المنزلة بين أمتهم ولم يكن لهم

شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم افكارهم وينقلون اليهم مشاعرهم . وأولئك يطيعون امرهم كما يطيع الحيوان المفترس أوامر مروضة . وان كان في استطاعته افتراسه بالسهولة لو اراد

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من قواد الجماعات مثل بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وجان دارك ونابليون . وهو السبب فى تمكنهم فانما تتسلط الآلهة والابطال والمذاهب تسلطاً لادخول للمناظرة فيه . بل ذلك السلطان يزول اذا بحث فيه

كان اولئك العظماء ذوى قوة اخاذة قبل اشتهارهم وتلك القوة هى السبب فى شهرتهم فلما بلغ نابليون مثلا ذروة المعالى كان له نفوذ شامل بمقتضى منعته وسلطانه . الا انه كان له شيء منه يوم لم يكن له من السلطة ولم يكن معروفا لدى أحد فلما ترقى الى رتبة لواء (جنرال) وكان لا يزال مجهولا عهد اليه من كان مستصنعاً له بقيادة الجيش الفرنساوى المحارب فى بلاد إيتاليا فوجد نفسه بين لواآت عتاة أشداء وكانوا قد أجمعوا أمرهم على الاغلاظ له فى المقابلة لاعتبارهم إياه دخيلا بينهم . ولكنه ماعتم أن أخذ بزمامهم من أول التقائه بهم بلا كلام ولا إشارة ولا وعيد بل باول نظرة من ذلك الذى قدر له أن يكون من العظماء واليك كيف كان اللقاء :

« جاء قواد الفرق إلى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة وكان بينهم اللواء (أوجيرو) وهو جندى عظيم الجثة غليظ الطبع مختال بطول نجاده فخور بشجاعته. وكان ممتعضاً ينساب بالشتائم على نابليون من يوم أن سمع به وعرف أوصافه فسماه صنيعة (باراس) ولواء الشارع ونعته بالادب لانه كان يحب التفكر منعزلا وذا سمنة صغيرة ومشهوراً بالرياضى الصغير وبالخيال فلما اكتملوا أدخلوهم غرفة الاستقبال فابطأ نابليون فى الخروج اليهم وبعد زمن بان لهم متقلداً سيفه ثم اتشح برادائه وأخبرهم بنياته وأنفذ اليهم أوامره وأشار اليهم بالانصراف أما (أوجيرو) فقد تولاه الصمت ولم يرجع الى نفسه إلا بعد أن خرج فجعل يسب كما كان يشتم من قبل ولكنه أقر مع زميله (مسينا) أن هذا القائد الصغير أوقع الرعب فى قلبه وأنه حائر فى التأثير الذى أخذ به أول ماوقع بصره عليه »

صار نابليون من كبار الرجال فزاد نفوذه بمقدار ما أوتى من المجد وأصبح في أعين الجماعات مساويا للآلهة عند المتعبدين. اتفق أن القائد (فاندام) وكان جنديا ثوريا خشن الطباع جاف الاخلاق أكثر من زميله (أوجيرو). قصد ذات يوم تويلرى حيث نابليون وذلك سنة ١٨١٥ ومعه القائد (أورنانو) فقال

الأول للثانى وهما صاعدان فوق سلم القصر يحدثه عن نابليون «أيها الصديق إن لذلك الرجل الشيطان فى نفسي تأثيراً لست أدرك كنهه حتى انك لترانى مع كونى لاأخاف الله ولا الشيطان اذا اقتربت منه تأخذنى الرعشة كالطفل الصغير ويخيل إلى أنه قادر على إدخالى فى سَمّ الخياط واحراقى بالنار» وقد كان لنابليون مثل ذلك التأثير فى جميع من يقترب منه (١)

هذا التأثير الذى فاق حد الاعجاب يبين لنا السبب فى الاستقبال العظيم الذى قوبل به نابليون يوم عودته من جزيرة «الب» وكيف انه افتتح ثانية بلا امهال قلوب الامة الفرنساوية وهو أعزل وليس معه معين وامامه جيوش تلك الامة المنظمة وكان الناس يظنون أنها سئمت من جبروته عليها . حلف القواد

(١) وكان هو يعلم ذلك من نفسه ويعلم أنه يزيد فيه بمعاملته اكبر من حوله من الرجال معاملة لا تليق بعلاف الخيل على أنه كان من بينهم كثيرون من رجال الثورة الذين أزعجوا أوروبا . وروايات عصره مشحونة بالامثلة فى هذا الموضوع فمنها أنه انتهر ذات يوم (بونيو) وسط مجلس شورى الدولة ونعته بخادم قليل التربية . فارتعد المشتوم . فاقترب نابليون وقال له «أثاب اليك رشدك أيها الابله الكبير». وكان بونيو واقفاً على قدميه كالمارد فانحنى ملياً فمد الصغير يده وقبض على أذن الكبير . قال (بونيو) «علامة رضا تسكر من وجهت اليه وصفاء سيد يتلطف» هذه الحوادث وأمثالها تدل على مايفعله النفوذ فى النفوس إذ يجعلها تخنع خنوع الذلة والصغار . وتبين لدرجة احتقار ذلك الجبار العظيم لمن حوله فهو الذى كان يقول عنهم إنهم لايصلحون إلا حشواً للمدافع

الذين أرسلوا للقبض عليه أن يفعلوا فلن تكن إلا نظرة منه أخضعتهم وهم صامتون وكتب القائد (ولسلى) فى ذلك يقول «نزل نابليون من السفينة إلى بر البلاد الفرنساوية وليس معه إلا قليل من رجاله الخصوصيين كأنه فار من جزيرة الب الصغيرة التى كانت كل ما يقدر أن يتسلط عليه فما لبث بضعة أسابيع حتى قلب نظام الادارة الفرنساوية كلها على مرأى من ملكها الشرعى وذلك من غير أن يريق قطرة دم لواحد من أهلها بل بمحض نفوذه الشخصى مما لم يسبق له مثيل فى الدنيا وأعجب منه ما كان له من التأثير فى حلفائه أثناء هذه الحركة الطويلة التى ختمت فيها حياته العمومية فانه كان يلجئهم إلى تتبع خطاه حتى كاد يسحقهم لولا المقادير»

مات نابليون ولكن نفوذه بقي حياً أو صار ينمو وتأثيره هذا هو الذى حمل الناس على الاعتراف بابن أخته أمبراطوراً وكان من المستضعفين وها نحن أولاء اليوم نشهد ظهور أقاصيصه من جديد وذلك برهان على أن خياله لايزال قويا فى النفوس . أسئ معاملة الرجال كما تشاء واقتلهم الوفا الوفا وانزل على البلاد غارة وغارة إنك فى حل مما تصنع مادمت ذا نفوذ وكان فيك من الذكاء ماتحمى به ذاك النفوذ .

رب قائل ولكنك قد اخترت التمثيل للنفوذ با كبر مثال عزيز المثال والحق انى اخترته عمداً لابين للقراء كيف ثبتت أركان الديانات الكبر وقامت المذاهب العظام . وأنشئت الممالك الواسعة إذ لولا تأثير النفوذ في الجماعات ما كنا لذلك مدركين

لايقوم النفوذ بالتأثير الشخصى والفخار العسكرى والرهبة الدينية دون سواها . بل يجوز أن يتسبب عن أمر أصغر منها بكثير ويكون مع ذلك شديداً ولنا من القرن الحاضر أمثلة كثيرة أكبرها مثال سيتوارثه الخلف عن السلف جيلا بعد جيل وهو الذي نراه في تاريخ ذلك الرجل العظيم الذى غير وجه البسيط كما غير طرق المواصلات التجارية بين الامم يوم ان فصل بين القارتين . وقدكان السبب فى نجاحه ماأوتيه من قوة الارادة . ولا تنس تأثيره الذي كان ينفذه الى نفوس مخالطيه . كان الناس كلهم أضداداً له فاذا ماوجد فيهم انقلبوا برأيه معجبين . واذا خاطبهم اسكرتهم عذوبة القول فاصبحوا بعد النفور أحبة صادقين . ولقد انفرد الانكليز بالشدة في معارضته فلما ظهر في بلادهم صاروا له اعوانا مخلصين . ثم مرّ بمدينة (سوثمبتون) فدقوا النواقيس فرحاً بقدمه وهم يفكرون الآن فى اقامة تمثال يخلد ذكره دهر الداهرين . قامت فى وجهه الحوائل من مادة ورجال وماء وصخور

ورمال فقهر الكل وسخره فلما فاز اصبح لا يؤمن بالصعاب ولا يخشى الصدام واراد ان يبدأ عملا جديداً ففكر فى الذهاب من السويس الى باناماوشرع فى العمل بالوسائل نفسها لكن الشيخوخة كانت قد اقبلت واليقين لايزحزح الجبال الا اذا لم تتصل بذروتها السماء. هنالك استعصى الجبل. وحم القضاء. ونزلت الكارثة فهدمت صرح مجد أقامه ذلك البطل العظيم. إن في حياته ارشداً كيف يحيا النفوذ وكيف يموت. بلغ الرجل فى المجد أرفع منزلة رقيها كبار الرجال. وأنزله قضاة أمته الى أخس دركات المجرمين. فلما مات مرت جنازته كنها تشيع نفسها بين الجماهير وهم عنه لاهون. وانما ملوك الدول الاجنبية هم الذين ذكروه يوم مماته فاعربوا عن اعجابهم به كما يقع لاعاظم الرجال [1]

---

(١) لما مات دولسبس نشرت جريدة «نوى فراى بريسه» النمساوية بمدينة «فينا» مقالة فى مآل ذلك الرجل جاءت فيها بخواطر جديرة بالامعان ولذلك ننقلها للقراء قالت «لم يبق موجب للعجب من مآل كريستوف كولمبو(١) الذى يثير الحزن والاسى بعد الحكم على «فرديناند دولسبس» لانه اذا كان فرديناند دولسبس نصاباً فكل أمل من الآمال الكبار جرم عظيم ولو كان دولسبس من أهل العصور الاولى لتوجه أهل زمانه بابهى تاج من المجد والفخار ولسقوه الرحيق فى حجرة آلهتهم التى كانوا يعبدون لانه غير وجه الارض. واى

---

(١) هو الذى اكتشف امريكا

الامثلة التي قدمناها تعد أقصى ما يبلغ النفوذ اليه . فاذا أردت أن تعرف ماهية النفوذ مفصلا وجب أن تضع تلك الامثلة في أعلى السلم ثم تتدرج من منشئي الديانات ومقيمي الممالك حتى تصل إلى الرجل البسيط الذي يحاول أن يبهر جاره بثوب جديد أو وسام

من الاعمال مايدعو الى تحسين الخلق في الوجود

« خلد رئيس محكمة الاستئناف اسمه في التاريخ بحكمه على دولسبس لان الامم لا تنفك تسأل عن اسم الذي اجترأ غير هياب لخطمن قدر عصره ، وألبس طاقية المجرمين رأس شيخ كانت حياته مجداً وفخاراً لمعاصريه

« ألا فليكفوا منذ اليوم عن ذكر العدالة بين ربوع تمكنت البغضاء من نفوس صغار الموظفين في مصالحها فحنقوا على كل من قام بعمل مجيد. الا أن الامم في حاجة الى رجال ذوي عزم واقدام يثقون بانفسهم ويقتحمون كل صعب وهم لذواتهم غير ملتفتين إلا أنه لا حذر لنابغ إذ ولو كان حذراً ما أمكنه أن يرقى هامة العصر الذي هو فيه

« ذاق فردیناند دولسبس حلاوة المجد وغضاضة الخذل .السويس و بناما. وهنا يحق للنفس أن تنغض من آداب الفوز والانتصار فلما أفلح دولسبس وجمع بين البحرين جاءته الملوك والامراء تهديه التهاني .واليوم لما ادركه الفشل امام صخور (كورديليير) كان نصاباً حقيراً. إن هذه إلا حرب تقوم بين الطبقات في الامم يثيرها حقد الموظفين الذين ألفوا المكاتب ولاذوا بقانون العقوبات انتقاماً ممن يصبو الى المجد والمعالي.ولقد يحار مشرعو هذي العصور امام تلك الافكار العالية التي يولدها النبغاء . والعامة في ذلك أقل فهماً وأدنى ادراكا . لكنّ من السهل على الافوكاتو العمومي اقامة البرهان على ان ستانلي من القتلة وان دولسبس من الخادعين

والناس من يلق خيراً قائلون له   مايشتهى ولام المخطىء الهبل

وبين هاتين النهايتين درجات كثيرة من النفوذ تراها في جميع أركان المدنية من علوم وفنون وآداب . وترى النفوذ أول مؤثر في تحصيل الاعتقاد . فالناس يقلدون ذا النفوذ عمداً أو بمحض الفطرة سواء كان انساناً أو رأياً أو شيئاً آخر . ويتولد في أهل عصر من قلدوه طريقة مخصوصة يحسون بها ويترجمون عما به يشعرون ويكون التقليد في الغالب فطرياً لذلك يبلغ حد الكمال والاتقان ومن ذلك أن مصوري هذه الايام أخذوا يعيدون رسم الصور ذات الالوان الباهتة والازياء العابسة التي تمثل أناساً من أهل الفطرة الاولى وهم لا يشعرون من أين جاءهم هذا الميل ويظنون أنهم هم الذين أوجدوه لانفسهم وفاتهم أنه صنع أحد كبار المصورين ولولا ذلك لاستمروا على النظر إلى تلك الصور من جهة سذاجتها وانحطاط درجتها في فن التصوير ومنهم من قلدوا أحد المشاهير فجعلوا يكثرون في مصوراتهم من الظلال البنفسجية اللون مع أنهم لا يرون هذا اللون منتشراً في الطبيعة اكثر مما كان يراه غيرهم منذ خمسين عاماً . والواقع أنهم متأثرون بفعل أستاذ من عظماء أساتذة الفن كانت له في ذلك التلوين شهرة فائقة وان كان هذا الاختراع مما يعد غريباً . وأمثال المصورين كثيرة في جميع عناصر المدنية

ويؤخذ مما تقدم أن النفوذ يتكون بعوامل شتى اهمها

النجاح. فتى نجح الآمر في أمره دانت له الناس وبطلت معارضتهم له وكذلك الفكر اذا تمكن من العقول. والدليل على أن النجاح أقوى عامل في تحصيل النفوذ ان هذا يذهب بذهاب ذاك فالناس يهللون في المساء لبطل كلل بالنصر ويسخرون منه في الصباح اذا قلب له الزمان ظهر المجن . وبقدر النفوذ يكون انعكاس الرأى في صاحبه اذا تولته الخيبة فتراه الجماعة من اندادها فتميل الى الانتقام منه جزاء ذلها امام سلطانه الذى لم تعد تعترف له بشيء منه. هكذا كان نفوذ روبسبير شديداً يوم كان يقطع رؤوس زملائه ورؤوس الكثير من معاصريه فلما ضاعت منه بعض الاصوات وقت الانتخاب وسقط من مركزه فارقه النفوذ لساعته وشيعته الجماعة إلى المشنقة وهى تتميز من الغيظ كما كانت تشيع بالامس ضحاياه . ومن عبد الآلهة وزاغ عنها كاد يقتله الغضب وهو يحطم الاصنام

يذهب الخذلان بالنفود فجأة وقد يذهب النفوذ بالبحث فيه لكن ذلك لا يتم الا بالتدريج وهذه الوسيلة هى أضمن الوسائل لاضاعته وما من اله أو انسان دام له النفوذ زمنا طويلا الا كان لا يحتمل المناظرة فيه انما تعجب الجماعات بمن يترفع عن مقامها .

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وأفكارها

---

(١) فى المعتقدات الثابتة ـ فى عدم تقلب بعض المعتقدات العامة ـ فى ان هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية ـ فى صعوبة إزالتها ـ فى أن التعصب أحد فضائل الامم من بعض الوجوه ـ فى أن بطلان معتقد عقلا لا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) ـ فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة ـ فى ان الافكار التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير ـ فى ان تغيير المعتقدات والافكار يظهر فى فى أقل من قرن واحد ـ فى حدود هذا التغير الحقيقية ـ فيما يكون فيه التغير ـ فى أن زوال المعتقدات العامة فى العصر الواحد وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار ـ فى ان أفكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال ـ فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق ـ فى أن تشعب الافكار فى الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

١

فى المعتقدات الثابتة

يوجد بين الخواص التشريحية أى الجسمانية والخواص النفسية تشابه تام، فمن الاولى ماهو ثابت أولا يتغير الا ببطء

شديد بحيث يلزم لتغييره زمن كالذى بيننا وبين الطوفان، ومنها ماهو متقلب يتغير بالسهولة من أثر البيئة أو المربى وقد يبلغ التغيير درجة تختفى فيها الخواص الاصلية على غير المتأمل

وكذلك الحال فى الخواص الادبية فمن أخلاق الشعب ماهو ثابت لايغيره كرور الايام ومنها ماهو متقلب يتغير . ومن ينعم النظر فى معتقدات الامم وأفكارها يرى دائماً فى أخلاقها أصلا ثابتاً ترسب فوقه أفكار متقلبة كما ترسب الرمال فوق الصخر

وعليه تنقسم معتقدات الجماعات الى قسمين الاول المعتقدات الدائمة التى تعمر عدة قرون واليها ترجع مدنية الامة كلها كالافكار التى سادت أيام حكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وأفكار الاصلاح (البروتستانتية) وكالجنسية والافكار الديموقراطية والاجتماعية فى أيامنا والقسم الثانى يشمل الافكار الوقتية المتغيرة وهى مشتقة فى الغالب من الافكار العامة تظهر وتغيب في الجيل الواحد كالنظريات التى تسترشد بها الفنون والادب فى فى أوقات معلومة ومذهب حرية الكتابة (الانشاء) [1] ومذهب الطبيعيين ومذهب الصوفية وهكذا . وتلك الافكار كلها سطحية

---

(١) هو مذهب يقول أصحابه بعدم وجوب التقيد دائماً بما جرى عليه السلف فى فن التحرير من التزام قواعد وتراكيب مخصوصة

سريعة التغير كالبدىء (الموضة) فمثلها كمثل الامواج الصغيرة التى تظهر وتختفى من دون انقطاع على سطح بحيرة عميقة

المعتقدات الكبيرة العامة قليلة جداً . وقيامها وسقوطها فى كل أمة ذات تاريخ يمثلان أعظم دور فى حياتها . ولا قوام للمدنية بدونها

ومن السهل جداً ايجاد فكر وقتى فى عقول الجماعات لكن من الصعب جداً تقرير معتقد دائم فى نفوسها كما انه من الصعب جداً هدم اعتقاد تمكن منها . ولا سبيل الى التغيير غالباً إلا بالثورات العنيفة بل ان الثورة لا تؤدى الى ذلك الا اذا اضمحل قبلها أثر المعتقد فى النفوس . فهى تصلح لكسح تلك البقية التى تكاد تكون فى حكم المهمل لولا ان سلطان العادة يمنع من الاقلاع عنها بالمرة . فالثورة التى تقبل عبارة عن معتقد يدبر

ومن السهل تحديد اليوم الذى ينذك فيه أحد المعتقدات الكبرى ذلك هو يوم يأخذ الناس بالبحث فى قيمة هذا الاعتقاد لان كل اعتقاد عام يكاد يكون أمراً فرضياً . فهو لا يحتمل البقاء إلا بشرط عدم البحث فيه

غير ان النظامات التى أسست على اعتقاد عام تستمر حافظة لقوتها ولا تنحل إلا ببطء وان تزعزع ذلك الاعتقاد فاذا تم له الهدم تساقط ما بنى عليه

ومما قضت به سنة الوجود حتى الآن ان كل أمة أصبحت متمكنة من تغيير معتقداتها لا بد لها عاجلا من تغيير جميع أركان حضارتها فهى تغير وتبدل فيها حتى تهتدى الى معتقد جديد عام ترضاه النفوس وتعيش فى فوضى حتى تمتر عليه فالمعتقدات العامة هى دعائم الحضارة التى لا بد منها وهى التى ترسم للافكار طريقها الذى تسير فيه وهى التى توحى بالايمان وتفرض الواجبات

أدركت الامم على الدوام فائدة المعتقدات العامة وفطنت الى ان يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها. عبد الرومانيون مدينة روما عبادة المتعصبين فسادوا على الدنيا أجمع. فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما. واستمر المتبربرون الذين خربوا ملكها على همجيتهم حتى اذا رسخت بينهم بعض المعتقدات العامة وجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى

وعليه تعذر الامم فى دفاعها المستميت عن معتقداتها. إذ الحقيقة ان هذا التعصب هو أرقى الفضائل فى حياة الامم وان كان مذموماً جداً من الجهة الفلسفية

ما أحرق أهل القرون الوسطى الالوف من الناس إلا للدفاع عن معتقد عام موجود أو لادخال معتقد عام جديد فى النفوس وما مات الكثير من المخترعين والمبتدعين والاسى ملء قلوبهم

إلا لأنهم لم ينالوا قسطاً من العذاب لاجل تلك المعتقدات وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة إلا للدفاع عنها . وما ماتت الملايين فى ساحة الوغى إلا بسببها ، وكذلك يكون فى مستقبل الايام

من الصعب غرس معتقد جديد لكنه بعد أن يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمنا طويلا وكيفما كان خطأ من الجهة الفلسفية فانه يتسلط على أكبر ذوى الألباب بدليل أن الأمم الأوروباوية دانت لأقاصيص واعتقدتها حقائق لاشك فيها خمسة عشر قرنا والمتأمل فى تلك الاقاصيص يراها أحق بالقوم الهمج [1] كاقاصيص (مولوخ) [2] هكذا بقى العالم قرونا وهو لايفقه تلك الخرافة الرائمة القائلة بان إلهاً ذاق ابنه عذاب الهون انتقاما ممن عصاه من خلقه . ولم يجل بخاطر أعظم الرجال عقلا وإدراكا مثل (غاليله) و (نيوتن) و (لايبنيتز) انه يجوز النظر فى حقيقة هذه الافكار ذلك مما يبرهن على قوة استيلاء المعتقدات العامة وسحرها منفوس ولكنه يبرهن أيضا على أن العقل محدود بحدود مخجلة

---

(١) أقول الهمج من حيث الفلسفة والنظر اماعملا فقدأوجدت تلك الاقاصيص مدنية جديدة صرفة . وأبصر الناس من ورائها مدى خمسة عشر قرنا هاتيك الجنان دانية القطوف واحيت قلوبهم بالآمال مما لم يعودوا يذوقون حلاوته الآن

(٢) الهعبده الكلدانيون واهل قرطاجة وكانوا يحرقون الاطفال قربانا له و يعتقدون انه يمد ذراعيه دائما ليتلقاها (م)

ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات أصبحت مصدر نظاماتها ومرجع فنونها وقاعدة سيرها . هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها فترى أهل العزائم لايفكرون إلا فى تحقيقها وواضعى القوانين إلا فى الأخذ بها والفلاسفة وأرباب الفنون والكتاب إلا فى تمثيلها على صور شتى

وقد يتولد عن العقيدة العامة أفكار وقتية ثانوية إلا أنها تكون على الدوام مصبوغة بصبغتها فقد تولدت حضارة المصريين وحضارة الأوروبيين فى القرون الوسطى وحضارة المسلمين من عقائد دينية قليلة العدد طبعت كل عقيدة منها خاتمها على كل جزئية من جزئيات حضارتها وسهلت بذلك معرفتها

من هذا يتبين أن الفضل للعقائد العامة في إحاطة أهل كل عصر بتقاليد وأفكار وعادات تقيدوا بها وصاروا متشابهين والتي يهدى الناس فى سيرهم إنما هى الافكار والعادات المتولدة عن تلك العقائد فهى الحاكمة على أعمالنا جليلها وصغيرها وكيفما سمت مداركنا فانا لانفكر في الخلاص منها . إذ الاستبداد الحقيقي هو الذى يدخل على النفوس من طريق الغرائز . لانه هو الذى لا يتمكن المرء من محاربته . فلقد كان (تيبير) و (جنكيزخان) و (نابليون) جبارين مستبدين ولكن استئثار

« موسى » و « بوذا » و«عيسى » و « محمد » صلى الله عليه وسلم و « لوتر » وهم في القبور أشد وأبقى . إن مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ولكن ماذا ينفع الكيد فى عقيدة استقرت فى النفوس. قامت حرب عنيفة بين الثورة الفرنساوية والدين المسيحى وكانت الجماعات فى ظواهر الأمر من جانب الاولى واستعمل الثوار من وسائل القهر والاضطهاد ما استعمله الانداسيون والثورة هى التى دارت عليها الدائرة انما الجبابرة الذين سادوا فى البشر هم خيال الأموات أو الاوهام التى أوجدتها الامم لنفسها

ما كان بطلان العقائد العامة من حيث النظر والفلسفة مانعاً من استظهارها وقد يظهر أن فوزها مشروط باحتوائها على شيء من الجزء الخفى . واذا كانت مذاهب الاشتراكيين فى العصر الحاضر واضحة الضعف فليس ضعفها هذا هو الذى يكون سبباً فى عدم استيلائها على نفوس الجماعات وانما السبب في انحطاطها عن جميع العقائد الدينية راجع إلى أن السعادة التى وعدت بها الديانات لا تتحقق إلا فى الدار الباقية فلم يكن لاحد أن يمارى في تحقيقها وأما السعادة التى وعد بها مذهب الاشتراكيين فانها يجب أن تتحقق فى الحياة الدنيا ومتى شرع في ذلك بان أن الوعد خلب وسقط بذلك نفوذ العقيدة الجديدة وعليه فلا يعظم سلطان

هذه العقيدة إن تم لها الظفر إلا إلى اليوم الذى يبدأ فيه بتحقيقها وذلك هو السبب فى أن هذا الدين الجديد له من قوة التخريب ما كان لغيره من الاديان التى سبقته ولكنه لن يكون له ما كان لها من قوة النبأ



فيما للجماعات من الأفكار غير الثابتة

يوجد فوق سطح العقائد الثابتة التى شرحنا تأثيرها العظيم طبقة من الأفكار والآراء التى تتجدد وتزول دائماً ، فنها ما يدوم يوماً واحداً ، وأهمها لا يدوم أكثر من الجيل الذى نشأ فيه . وقد قدمنا أن التغيير الذى يطرأ على هذه الافكار صورى أكثر مما هو حقيقى فى الغالب ، وانها مصبوغة على الدوام بصبغة الشعب الذى توجد فيه ، ومثلنا لذلك بنظام بلادنا السياسى فأوضحنا أن أشد المذاهب خلفاً من ملوكيين وجمهوريين وامبراطوريين واشتراكيين وهكذا يشتركون فيما يرمى جميعهم اليه وان هذا المرمى راجع إلى طبيعة شعبنا النفسية أو الادبية

واستظهرنا على ذلك بوجود أسماء هذه النظامات وانها عند أمم أخرى ودلالتها على شيء آخر وبأن وضع الاسماء للافكار والباس الشيء ثوباً يريه في صورة غيره لايغير من حقيقة ذلك الشيء . كان أهل الثورة الفرنساوية متشبعين بأدبيات الرومانيين شاخصين على الدوام الى جمهوريتهم فنقلوا اليهم شرائعهم وقضبانهم[١] وأرديتهم واجتهدوا في تقليدهم في نظاماتهم وأحوالهم . ومع هذا لم يصيروا رومانيين لانهم كانوا محكومين بتقاليدهم التاريخية . ووظيفة الحكيم هي استخلاص ما بقي من العقائد الاصلية وسط التقلبات الصورية وأن يميز في معمعة الافكار المتغيرة ما يرجع منها إلى روح الشعب وعقائده العامة .

وإذا لم يوجد هذا الفارق الفلسفي جاز الظن بأن الجماعات تغير كثيراً عقائدها الدينية والسياسية كما تشاء ، والظاهر أن التاريخ يؤيد هذا الظن سواء كان تاريخ السياسة أو الدين أو الفنون أو الأدب ، لأنا إذا نظرنا في تاريخنا إلى الفترة القصيرة الواقعة بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٨٢٠ أعني ثلاثين سنة وهو عمر جيل واحد ورأينا الجماعات التي كانت ملوكية تحولت فصارت ثورية للغاية ثم امبراطورية كذلك ثم عادت ملوكية كما كانت هذا

(١) شارات القوة والعظمة عند الرومانيين

فى السياسة وأما فى الدين فانها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالالوهية ثم رجعت إلى الكثلكة الضيقة إلى حد التغالى ولم يكن ذلك شأن الجماعات وحدها بل شاركها فيه كله قوادها فشهدنا والعجب يأخذ منا أولئك الثوار الذين تقاسموا على بغض الملوك وأنكروا الله والسلطان أمسوا خداماً خاضعين لنابوليون وأصبحوا يحملون الشموع والخشوع ملء جوانحهم فى احتفالات الملك لويز الثامن عشر

وما أكثر الانقلابات التى طرأت على أفكار الجماعات في السبعين سنة التالية فقد صار الانكليز حلفاء أمة الفرنساويين فى عهد خليفة نابوليون وكانوا فى أول القرن أعداءنا كرين وأغرنا مرتين على بلاد الروس وكم خفقت قلوبهم فرحا بانكسارنا ثم صاروا لنا أصدقاء

وأسرع من ذلك تقلب الافكار فى الأدب والفنون والفلسفة فكنا لا نتقيد بقواعد اللغة . وكنا طبيعيين وكنا صوفيين وكنا غير ذلك كل هذا ظهر واختفى وكان الناس يتغنون باسم هذا الكاتب أو ذاك المصور فى المساء فاذا أصبح الصباح حقروه ورذلوه

وإذا دققنا البحث في هذه التقلبات التى يخال انها حقيقية

متأصلة فى النفس رأينا إن ما كان منها مخالفاً للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب فهو زائل لا يدوم الا يسيراً ولا تلبث المياه أن تعود إلى مجاريها فمن المعلوم أنه يستحيل دوام الافكار التى لا رابطة بينها هى والمعتقدات العامة ومشاعر الشعب لانها معرضة لتأثير الطوارىء والاتفاق تتغير بأقل تغيير فى البيئة التي وجدت فيها. ومما يدل أيضا على عدم بقائها أنها تولدت من طريق الالقاء والعدوى فهى تولد ثم تموت بسرعة الرمل الذى يتكون أكداساً على شاطىء البحر ثم تذهب به الريح ثم تعيده وهكذا

ولقد كثرت في أيامنا هذه أفكار الجماعات التى لا بقاء لها ولذلك ثلاثة أسباب:

الاول أن الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئاً فشيئاً فلم تعد تؤثر فى الافكار العرضية تأثيراً ينظمها ويهديها. وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه أن يفسح المجال لتولد أفكار خاصة لا رابطة بينها هى والماضى ولا يرجى بقاؤها فى المستقبل

السبب الثانى أن قوة الجموع تزداد شيئاً فشيئاً والقوة المضادة تضعف بمقدار ذلك وقد عرفنا أن الجماعات كثيرة التقلب فى أفكارها فالنتيجة أنها أصبحت أكثر حرية فى إظهار تلك الافكار المتقلبة

والسبب الثالث هو كثرة انتشار المطبوعات لما فيها من كثرة الأفكار المتناقضة التى تعرضها على الجماعات . فالفكرة لاتكاد تظهر حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها وما من فكر ينتشر تماماً وكلها محكوم عليها بسرعة الزوال فهى تموت قبل أن تنتشر انتشاراً يثبتها ويجعلها معتقداً عاماً

من تلك الاسباب تولدت ظاهرة جديدة فى تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر وهى ضعف الحكومات عن قيادة الرأى العام .

كان زمام الرأى فى الزمن السابق ماهو فى يد الحكومات وبعض ذوى النفوذ من الكتاب وعدد مخصوص من الجرائد فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم ، وأما الجرائد فان وظيفتها أصبحت قاصرة على أن تكون مرآة للرأي وأما السياسيون فانهم لايديرونه بل يسيرون خلفه وقد أخذتهم منه رهبة تكاد أحيانا تبلغ حد الذعر والانذهال فهم لا يثبتون فى أى طريق يسلكون

نتج من هذا أن رأى الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة وقد وصل الآن الى الجاء الامم لعقد المحالفات كما وقع أخيراً فى المحالفة الروسية التى كانت حركة الرأى العام

مصدرها الوحيد ومن أعجب ما يشاهد الآن استسلام البابوات والملوك والقياصرة لنظام الاحاديث(١) ليصرحوا بأفكارهم ويعرضوا آراءهم فى أمر من الامور إلى حكم الجمهور ، قالوا فيما مضى ان السياسة ليست من الامور التى تسيرها المشاعر وانا نشك فى أنه يمكن القول بذلك الآن بعد ما بان أن نزعات الجماعات تقودها كل يوم أكثر من الذى قبله والجماعات لاتعرف العقل ولا تندفع الا بالمشاعر .

وأما الجرائد فبعد ان كانت تقود الرأى العام كالحكومات اضطرت إلى التسليم أمام سلطان الجماعات. نعم للجرائد أثر شديد فى الناس لكن ذلك سببه أنها صارت مرآة لارائهم ومتغيرة بتغير أفكارهم المستمر . أصبحت الجرائد رسل أخبار فلم تعد قادرة على نشر رأى أو تقرير مذهب بل هى تسير خلف أهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم وإلا خسرت قراءها ألا ترى الجرائد الكبرى القديمة التى كان لها المقام الاول والتأثير القوى مثل (لوكونستيتوسيونيل) و (الدييا) و (السييكل)

---

(١) يشير الى ما الفه الناس فى هذه الايام من محادثة الملوك والعظماء ونشر احاديثهم فى الكتب والصحف

وهى التى كان يتلقى آباؤنا أقوالها كالوحى المنزل من السماء قد احتجبت أو صارت صحف أخبار محلاة ببعض الفكاهات القصصية ولطائف المجتمعات والاعلانات التجارية . لاتوجد اليوم جريدة تسمح ماليتها للمحررين بابداء آرائهم الذاتية على أنها إن وجدت ما كان لتلك الآراء والافكار قيمة عند القراء لانهم انما يطلبون خبراً يقرأونه أو نكتة يتفكهون بها وصاروا فى ريب من كل رأى ونصيحة توجه اليهم إذ يظنون أن وراءها طمعا فى ربح أو سعيا لمنفعة خاصة ، بل أن أهل النقد أصبحوا لايجرأون على نشر كتاب أو رواية تمثل فى المراسح فان النقد صار مما قد يجلب الضرر ولا يجر اليهم نفعاً ، أيقنت الجرائد بعدم الفائدة من النقد أو إبداء الاراء الشخصية فجعلت تقلل منه في عالم الادب حتى بطل واستعاضته بذكر اسم الكتاب الجديد متبوعاً بسطرين أو ثلاثة للاعلان عنه والحث على إقتنائه وربما آل الامر إلى مثل ذلك بعد عشرين سنة فيما يتعلق بنقد الروايات التى تشخص فى الملاهى

أصبح الشغل الشاغل للجرائد والحكومات تتبع حركات الرأي العام فالذى يهمهم من حادث يقع أو من مشروع قانون يحضر أو من خطاب يلقى إنما هو أثر ذلك في الناس وما ذلك

بهين على طلابه لشدة تغير أفكار الجماعات فما أسرعها فى السخط على أمر لم تكد تفرغ من التهليل له .

ينتج عن فقدان ضابط للرأى واقتران ذلك بانحلال الاعتقادات العامة تفتت اليقين وتمزق الوجدانيات وعدم اهتمام الجماعات بشىء لا تظهر فيه لها منفعة حاضرة ظهوراً تاماً . وأما المذاهب كالاشتراكية فان حماتها الخاصين من أجهل الطبقات كعمال المعادن والمصانع . أما متوسطو الحال وكل من ناله قليل من التعليم فهم فى شك من كل شىء أوهم كثيرو التقلب

التطور الذى تم من هذه الجهة فى الخمس والعشرين سنة الماضية واضح . فقبل ذلك والعهد قريب كان للافكار وجهة عامة لانها كانت مشتقة من بعض اعتقادات أصلية. وكان للملوكى بمقتضى كونه ملوكيا أفكار وآراء ثابتة فى التاريخ وفي العلوم وكان للجمهورى بمقتضى كونه جمهوريا أفكار وآراء تناقض الاولى على خط مستقيم . الاول يعتقد أن الرجل ليس متولداً من القرد والثانى يعتقد الضد تماما . الاول يري من الواجب عليه اذا تكلم فى الثورة أن يغضب وينفر والثانى أن يعجب ويبالغ في التعظيم والتبجيل . وكان من الناس من لا يجوز ذكر اسمه الا مقرونا بالخشوع والاجلال مثل (روبسبيير) و (مارات) أو متبوعا

بالترذيل والامتهان مثل (قيصر) و (أوغسطس) و (نابوليون) وعم هـذا المذهب السخيف فى التاريخ حتى تفشى فى مدرسة (السربون) نفسها [١]

ليس لفكر ولا لرأى فى هذه الايام وقع فى النفوس لكثرة المناظرة والتحليل مما يذهب بطلاوتهـا ولا يجعل تأثيراً للبقية والذى ينفرد به أهل هذا الزمان هو عدم الاهتمام بالامور شيئاً فشيئاً .

على انه ينبغى أن لانحزن من انتشار الافكار نعم لا شبهة فى أنه منذر بانحطاط الامة لانه من المحقق أن تأثير أهل الخيالات والرسل وقواد الجماعات وعلى الاطلاق جميع الذين سكن اليقين قلوبهم أكبر جداً من تأثير أهل الجحود والنقادين ومن لايهتمون بشىء لـكن لايذهب عنا أنه إذا تمـكن رأى واحد من النفوس

(١) يوجد فى هذا الباب بعض صفحات من كتاب المعلمين الرسميين فى مدارسنا غاية فى الغرابة وهى تدل على ضعف ملـكة النقد الناشىء عن طريقة التربية فى المدارس وأنى انقل للقرء الاسطر الآتية من كتاب الثورة الفرنساوية لاحد مدرسى التاريخ فى مدرسة (السربون) المذكورة قال «ان الاستيلاء على (الباستيل) عمل من أكبر أعمال تاريخ الامة الفرنساوية بل تاريخ أوروبا كلها لانه كان فاتحة دور جديد فى حياة الامم » وقال عن (روبسبيير) إن استبداده بالناس كان استبداد رأى ويقين ونفوذ أدبى وكان أشبه بسلطة روحية عليا فى يد رجل من الاخيار» (صفحة ٩١ و ٢٢٠)

والجماعات على ماهى عليه الآن من القوة والنفوذ لايلبث أهله أن يصيروا مستبدين استبداداً يذل له كل مافى الوجود ويغلق باب حرية الافكار وحرية النقد زمناً طويلا . لايقال ان من سلاطين الجماعات من كان ندى الخلق لين الملمس لان طبعها قلب فهى هوائية سريعة الغضب والانفعال فاذا قدر لحضارة أن تقع في يدها أصبحت هدفا للطوارىء والمصادفات وقصر بذلك أجلها وان كان يرجى تأجيل زمن الانحدار والسقوط فانما يكون ذلك من شدة تقلبات آراء الجماعات وعدم اهتمامها بالاعتقادات العامة .

الباب الثالث

أقسام الجماعات وبيان أنواعها

الفصل الأول

أقسام الجماعات

اقسام الجماعات العامة ـ انواعها

١ ـ الجماعات المختلفة العناصر ـ اوجه اختلافها ـ تأثير الشعب ـ فى ان روح الجماعات تكون ضعيفة بقدر ماتكون روح الشعب قوية ـ فى ان روح الشعب تمثل حالة الحضارة و روح الجماعات تمثل حالة الهمجية

٢ ـ الجماعات المؤتلفة العناصر ـ انواعها ـ الافتاء و الطوائف والطبقات

بعد أن بينا الصفات العامة للجماعات النفسية ينبغى أن نبين الصفات الخاصة التى تنفرد بها المجامع عن بعضها إذا صارت جماعات بتأثير الاسباب المؤدية إلى ذلك

ولنبدأ بقول موجز فى تقسيم الجماعات

فأولها الجمع مطلقا وأدنى مراتبه ما كان مؤلفا من أفراد

ليسوا من شعب واحد ولا رابطة بينهم إلا إرادة رئيسهم بقدر ماله من المنزلة فيهم ويمكن التمثيل لهذه المجامع بالمتبربرين مختلفي الاصول الذين أغاروا على المملكة الرومانية مدة قرون عدة

ويليها الجموع التى احتفتها أحوال وعوامل ولدت فيها صفات عامة وانتهت بان صارت شعباً واحداً . ولهذه الجموع فى بعض الاحيان الصفات الخاصة بالجماعات إلا أن هذه الصفات الخاصة تكون دائماً متأثرة بصفات الشعب العامة

فاذا اجتمعت فى هذه المجامع بقسميها العوامل التى ذكرناها فى هذا الكتاب صارت جماعات منظمة أو نفسية. وهذه الجماعات تنقسم الى الاقسام الآتية :

أولا
الجماعات المختلفة العناصر
وفيها

(١) الجماعات التى لا اسم لها
« كجماعات الطريق العام »
(٢) الجماعات التى لها اسم خاص
« كالعدول المحلفين والمجالس
النيابية وهكذا »

ثانياً
الجماعات المؤتلفة العناصر
وفيها

(١) الافتاء (كالجموع السياسية والدينية وهكذا)
(٢) الطوائف (كالجموع العسكرية ورؤساء الدين والعمال وهكذا)
(٣) الطبقات (كجموع الاواسط وجموع أهل الريف وهكذا)

واليك قولاً موجزاً فى بيان مميزات كل نوع من هذه الانواع

القسم الأول

الجماعات المختلفة العناصر

هذه الجموع هى التى شرحنا صفاتها في هذا الكتاب وهى تتألف من أفراد ايا كانوا وكيفما كانت حرفتهم ومهنتهم وعقولهم. ونحن الآن نعرف انه متى اجتمع قوم وكونوا جماعة عاملة اختلفت أحوالهم النفسية الاجتماعية مع أحوالهم النفسية الفردية اختلافاً عظيما وان العقل لا يمنع من هذا الاختلاف لانه لاتأثير له فى الجماعات وان الذى يؤثر فيها إنما هو المشاعر الغريزية

ومن العوامل الاصلية ما يسهل معه تمييز الجماعات المختلفة العناصر تمييزاً تاماً وهو الشعب وقد ذكرناه مراراً وقلنا انه أعظم المؤثرات التي تنبعث عنها أفعال الناس ونقول ان له كذلك أثراً في صفات الجماعات فالجماعة المؤلفة من أفراد ايا كانوا وهم انكليز تختلف كثيراً مع الجماعة التي تتألف من أفراد ايا كانوا وهم خليط من الروس والفرنساويين والاسبانيين مثلا

أشد مظاهر الافتراق الناشيء عن الوراثة العقلية في كيفية الشعور والنظر في الامور يعرض فجأة متى اجتمع أفراد مختلفو الجنسية لسبب من الاسباب — وذلك نادر — كيفما اتحدت في الظاهر المنافع التي اجتمعوا لاجلها . حاول الاشتراكيون عقد مؤتمرات تضم نواباً عن جميع العمال في كل أمة فأدى ذلك دائماً إلى خلف عنيف والجماعة اللاتينية تطلب على الدوام معاونة الحكومة على ما تريد، تستوى في ذلك الجماعة الثورية الصرفة والجماعة المحافظة المحضة فهي تميل بطبعها إلى حصر السلطة وجمعها في يد واحدة وإلى من يجمع تلك السلطة في يده ، وأما الجماعة الانكليزية أو الامريكية فانها لا تعرف الحكومة ولا تستعين إلا بهمة الافراد الذاتية . أول ما تهتم له الجماعة الفرنساوية المساواة

وأول ما تهتم له الجماعة الانكليزية الحرية الشخصية . وبقدر اختلاف الشعوب تختلف المذاهب الاشتراكية والديمقراطية

وعليه تحكم روح الشعب دائما روحَ الجماعة فهى لها كالدائرة المنيعة التى تنظم تقلباتها وتحدد حركاتها . ومن هنا ينبغى أن نقرر القاعدة الآتية : تكون الصفات المنحطة فى الجماعة ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية . فحالة الجماعة هى الهمجية وتسلطها رجوع الهمجية . ولا يخرج الشعب من الهمجية ويتخلص من سلطة الجماعات التى لا يحكمها العقل إلا إذا كانت له روح قوية شديدة . وذلك يتأتى بالتدريج

ويلى الجماعات المتقدمة الجماعات التى لا اسم لها كجماعات الشوارع ثم الجماعات التى لها اسم تعرف به كجماعات العدول والمجالس النيابية. والذى يوجب اختلاف هذين النوعين غالبا فى انفعالهما هو أن الاولى لا تشعر بتبعة ما ينتج عن أعمالها بخلاف الثانية فانها تقدر تبعة عملها كما ينبغى

القسم الثانى

الجماعات المؤتلفة العناصر

تفترق الجماعات المؤتلفة العناصر إلى أفناء وطوائف وطبقات

فالافناء أول المراتب وهى تتألف من أفراد مختلفين فى التربية والحرفة والبيئة أحيانا ولا جامعة تجمعهم إلا وحدة الاعتقادومن هذا النوع الافناء السياسية والافناء الدينية

والطوائف أرقاها وهى تتألف من أفراد متحدين فى الحرفة فهم متشابهون في التربية والبيئة كجماعة الجند وجماعة الرؤساء الروحانيين

والطبقات هى التى أفرادها من مناشىء مختلفة اجتمعوا لا بجامعة الاعتقاد كالافناء ولا بجامعة وحدة الحرفة كالطوائف بل بجامعة المنافع والشبه في حالة المعيشة والتربية كطبقة الاواسط في الأمة وطبقة الزراع وهكذا .

ولما كان بحثي فى هذا الكتاب قاصراً على الجماعات المختلفة العناصر ومن نيتى أن أفرد للكلام على الجماعات المؤتلفة العناصر كتابا خاصاً فلا أطيل فى بيان صفات هذه الاخيرة واختم الكلام على الاولى بذكر بعض أنواعها مثالا للبقية

الفصل الثانى

الجماعات الجارمة

يجوز أن تكون الجماعة جارمة شرعا لكنها لاتعد كذلك فلسفيا ـ فإن أفعال الجماعة لا شعورية محضة ـ أمثلة شتى ـ روح جماعة شهر ستمبر ـ أفكارها وشعورها وقسوتها وأخلاقها

بعد أن يمضى زمن على الجماعة وهى في هياج تعتورها حالة هبوط تجعلها آلة صماء غير شاعرة يحركها الالقاء فى نفسها ولذلك يتعذر تأثيمها فلسفياً كيفما كان الحال وانما جريت فى الكلام على استعمال هـذا الوصف غير الصحيح لانى اقرأه فى بعض كتب علماء النفس الحديثة نعم أن بعض أعمال الجماعات تعتبر جرائم من حيث هى لـكن كما يعتبر عمل النمر الذى يلتهم الهندى بعد أن يكون قد تركه لصغاره يفرحون بتمزيقه

تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوى ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها أنهـم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهـم وهذا ليس شأن الجناة في الاحوال الاعتيادية ، وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك باجلى بيان

فمن أمثلة ذلك قتل موسيو (لونى) مدير سجن (الباستيل) وواقعة الحال انه بعد استيلاء الثائرين على هذا الحصن احاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار اليه وصارت الضربات تتساقط عليه من كل جانب . وهذا يشير بشنقه وذاك بضرب عنقه وثالث بربطه فى ذيل فرس وهكذا . وبينما هو يدافع عن نفسه فرطت منه رفسة أصابت واحداً من الجماعة . اذ ذاك اقترح أحدهم أن يقطع المضروب رأس الضارب فهلل الجمع بالموافقة . قال راوى الواقعة « وكان المضروب طباخاً خالياً من العمل ويقرب من أن يكون بهلولا ذهب الى (الباستيل) لينظر ماذا يجرى هناك . فلما سمع الاجماع ظن أن الفعل مما تقضى به الوطنية . وانه ينال وساما اذا أعدم ذلك الوحش . ثم ناولوه سيفا ضرب به عنق المدير وكان غير مشحوذ فلم يقطع فالقاه وأخرج من جيبه سكيناً صغيرة ذات مقبض أسود واستعان بخبرته فى تقطيع اللحوم فساعده الحظ وأتم عمله »

ومن هذا المثال يظهر لك كيف تصدر أفعال الجماعة فقد انقادت هنا الى تحريض قوى بالاجماع عليه واعتقد القاتل أنه أتى عملا شريفاً اعتقاداً أمكنه من نفسه ذلك الاجماع وقد يكون مثل هذا العمل آثماً بحكم القانون لكنه ليس كذلك فى حكم علم النفس

أما الصفات العامة للجماعات الجارمة فهى بعينها الصفات التى شاهدناها في غيرها ، من قابلية التأثر ، والتصديق والتقلب والتطرف فى المشاعر طيبة كانت أو رديئة ، والتخلق ببعض الاخلاق الخاصة وغير ذلك

وستظهر لنا هذه الصفات كلها فى إحدى الجماعات التى تركت فى تاريخنا أقبح ذكرى محزنة وهى جماعة شهر سبتمبر [١] وبين هذه الجماعة وجماعة (سانت بارثلمى) شبه عظيم ، وإنى أنقل شرح الواقعة عن موسيو (تاين) فهو الذى استخلصها من المفكرات التى كتبت أيام حدوثها

لا نعرف بالتحقيق الآمر والمحرض على تخلية السجون بقتل من فيها وسواء كان هو (دانتون) كما هو المظنون أوغيره [٢] فالذي يهمنا هو أنه وجد تحريض قوى تأثرت به الجماعة التى وليت المقتلة

كانت تلك الجماعة مؤلفة من نحو ثلاثمائة سفاك كلهم أشتات

---

(١) هى كارثة شهيرة وقعت أيام الثورة الفرنساوية فى باريس يوم ٢ سبتمبر سنه ١٧٩٢ بتحريض رجل يقال له (مارات) على الارجح أصله طبيب انقلب صحافياً دمويا صرفاً فكان يطلب اعدام مائتين وسبعين ألف نفس مدعياً أن فى ذلك فداء الوطن

(٢) هو (مارات) على ما ذكر فى معاجم التاريخ كما تقدم

فهي تمثل الجماعة المختلفة العناصر أكبر تمثيل إذ لم يكن فيها من الغوغاء إلا نفر يسير والباقون من أصحاب الحوانيت والصناع في كل حرفة وكل مهنة من جذائين وقفالين وحلاقين وبنائين ومستخدمين وسماسرة وغيرهم كلهم متأثرون بالتحريض الذي وقع عليهم ، كالطاهي الذي مر ذكره ، وكلهم يعتقد أنه قائم بواجب وطني . وقد قاموا بعملين ، فكانوا قضاة وجلادين ، ولكنهم لم يروا أنفسهم من الجناة أبداً ، بل وقر في نفوسهم أنه واجب من أكبر الواجبات ، وأول ما بدأوا به أن شكلوا محكمة هنالك ظهرت بساطة روح الجماعات وبساطة عدالتها ، ذلك أن المحكمة رأت عدد المتهمين كبيراً فقررت أولا قتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك وبالجملة قتل جميع الذين يعتبرون في نظر كل وطني جناة بمقتضى صناعتهم ، وأن يكون القتل جملة من دون احتياج الى حكم خاص ، وأما الباقون فيحكم عليهم بناء على سمعتهم أو شهرتهم . فلما اطمأنت نفوس الجماعة بهذا القرار انطلقت تنفذ ما حكم به القضاء فبرزت كوامن القسوة والتوحش اللذين شرحناهما من قبل ، والتوحش يزداد فظاعة وعنفاً في المجامع إلا أن الغرائز الهمجية لا تمنع من ظهور مشاعر تناقضها كما هو الشأن في الجماعات ، ولذلك كان يوجد في تلك الجماعة من عاطفة

التأثر ما يبلغ فى شدته تلك القسوة الهائلة

كان لاولئك القتالين عطف صناع باريس ولطف شعورهم من ذلك أن أحدهم علم أن المسجونين لم يذوقوا الماء منذ ست وعشرين ساعة فشرع فى قتل السجان لولا شفاعة السجناء وكانوا اذا برأت المحكمة التى أقاموها واحداً من المتهمين فرحوا وهللوا وانهالوا عليه يقبلونه وصفقوا تصفيقا طويلا ثم انقلبوا يقتلون غيره أكداساً ، كانوا يقتلون والسرور لايفارق محياهم ، يغنون ويرقصون ، ويمدون المقاعد للنساء لتشاهد وهى فرحة قتل الشرفاء ، وكان لهم عدل من نوع خاص يدلك عليه أن أحد الموكلين بالتقتيل شكا من أن النساء لايشاهدن القتل لبعدهن عن مكانه وأن القليل من الناس هو الذى ينال حظ ضرب الشرفاء فصوب الجميع شكواه وقرروا أن يمشى المتهمون الهوينا بين صفين من القتالين وأمروا هؤلاء أن لا يضربوهم الا بظاهر السيوف حتى يطول أمد العذاب ، وكان فريق يأتي بالمتهمين عراة كما ولدتهم الامهات ثم يمزقون أجسامهم مدى نصف ساعة كاملة فاذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعذبين فبقروا بطونهم .

ومع ذلك كنت تشاهد الأمانة لا تزال ملازمة للقاتلين

فكانوا يظهرون من الفضائل ماذكرناه للجماعات من قبل ويأبون أن يتناولوا شيئاً من نقود المقتولين وحليهم بل يقدمونها للجنة

وكانت بساطة التعقل التي انفردت بها روح الجماعات تظهر فى أفعالهم من ذلك أنهم لما فرغوا من قتل الالف والمائتين أو الالف وخمسمائة العدو للامة لاحظ بعضهم أن السجون الاخر تضم أناساً لا فائدة منهم وأن الاولى اعدامهم . فسارت الجماعة إلى الموافقة على هذا الرأى وكان من فى السجون الاخر أناساً من الشحاذين والهمل (المتشردين) والأولاد فرأت الجماعة أنه لابد من وجود أعداء للامة بينهم كامرأة رجل كان قد قتل نفساً بالسم إذ قال بعضهم « لابد أنها متغيظة من وجودها في السجن ولو تمكنت لوضعت النار فى باريس ولا بد أن تكون قد قالت ذلك . بل قالته . إذن حق عليها الاعدام » سرى هذا القول فى النفوس كالحجة الناصعة وهرولت الجماعة فقتلت كل من كان فى تلك السجون وبينهم نحو خمسين غلاما مابين الثانية عشر والثامنة عشر وقالوا فى قتلهم انهم إذا عاشوا لا يبعد أن يصيروا من أعداء الامة فالواجب التخلص من شرهم

ولما أتم القاتلون عملهم بعد أن زاولوه مدة أسبوع كامل

فكروا فى الراحة واعتقدوا أنهم خدموا الوطن خدمة يستحقون الجزاء من أجلها . ورغبوا الى حكومة ذلك الزمن أن تكافئهم ومنهم من طلب وساماً

وفى تاريخ ثورة ١٨٧١ أمثلة كثيرة كالتى قدمناها وسنرى كثيراً غيرها مادام سلطان الجماعات ينمو ويعظم وسلطان الحكومة ينزوى ويضعف

الفصل الثالث

المحلفون أمام محاكم الجنايات

الصفات العامة للعدول — فى أن الاحصاء يدل على انه لا تلازم بين قراراتهم وكيفية تشكيلهم — كيف يتأثر العدول — ضعف تأثير الدليل العقلى — طريقة الاقناع التى استعملها أشهر المحامين — الجرائم التى يرأف العدول بمن ارتكبها أو التى يقسون من أجلها — فائدة العدول وخطر تبديلهم بالقضاة

لما كان لا يتيسر لنا ذكر جميع أنواع العدول فى هذا الكتاب رأينا أن نقتصر على أهمها وهم العدول المحلفون امام محاكم الجنايات وهم أحسن مثال يمثل به للجماعات المختلفة العناصر التى لها اسم خاص. واذا بحثنا عن الصفات التى لها نجد قابلية التأثر. وسيادة المشاعر الغريزية. وضعف التأثر بالمعقول. والانصياع الى القواد وهكذا. وسنبين اثناء بحثنا فى هذه الجماعات بعض الغلطات التى يرتكبها من لم يكن خبيراً بعلم روح الجماعات لما فى ذلك من الفائدة

نجد أولا فى العدول المحلفين من حيث القرارات التى يصدرونها مثالا حسنا يبين أن تأثير الاذكياء الذين يوجدون فى جماعتهم ضعيف لما تقدم من أنه لا تأثير للعقل المستنير فى رأي

الجماعة اذا كان فى موضوع غير فنى . وان رأي جمع من العلماء وأهل الفن فى موضوع عام خارج عن علومهم وفنونهم لا يختلف كثيراً مع رأى جمع من البنائين أو البدالين فى ذلك الموضوع.
كانت الحكومة قبل سنة ١٨٤٨ تعتنى فى كثير من الاوقات بانتقاء العدول من المستنيرين . فتختارهم من بين المدرسين والموظفين ورجال الادب وأمثالهم وهم الآن ينتخبون خصوصاً من صغار الباعة وصغار المحترفين والمستخدمين . وقد اندهش الكتاب الاختصاصيون اذ دل الاحصاء على تشابه القرارات وان اختلف تشكيل جماعة العدول . وأقر القضاة أنفسهم بهذه الحقيقة مع كونهم من اعداء هذا النظام واليك ما كتبه موسيو (بيراردى جلاجر) أحد رؤساء محاكم الجنايات فى مفكراته « أصبح الآن اختيار العدول في يد نواب المجالس البلدية وهم يرفضون هذا ويقبلون ذاك على حسب أميالهم السياسية وأحوال الانتخابات . وصارت أغلبية العدول من تجار أقل درجة ممن كانوا ينتخبونه قبل الآن وممن مستخدمى بعض المصالح . ومع هذا لم تتغير روح العدول ولا تزال قراراتهم كما كانت عليه لان جميع الافكار تمتزج بجميع المهن فى وظيفة القضاء ولان كثيراً من المنتخبين يجتهدون اجتهاد المؤمن الحديث فى الايمان . ولان

الطبقة الدنيا لاتخلو من أهل المروآت »

والذى يهمنا من هذا القول هو النتيجة لصحتها لا المقدمات لضعفها. ولا غرابة فى هذا الضعف لان المحامين والقضاة لا يعرفون فى الغالب روح الجماعات ومنها المحلفين. والدليل على ذلك ماذكره الرئيس المشار اليه من أن (لاشو) وهو من أشهر المحامين أمام محاكم الجنايات كان لاينفك عن اختصام جميع العدول المستنيرين . وقد برهنت التجارب ـ وما كان لغيرها أن يقيم هذا البرهان ـ على ان ذلك العمل كان عقيما حتى ان النيابة والمحاماة تركتا هذه العادة فى باريس . ولم تتغير القرارات كما أشار اليه موسيو « جلاجو » فلا هى أحسن مما كانت عليه ولا هى أردأ منه

العدول كغيرهم من الجماعات يتأثرون بالمشاعر كثيراً ولا يتأثرون بالمعقول الا قليلا فهم كما قال أحد المحامين « لايثبتون أمام امرأة ترضع طفلها أو أمام صغار يتامى اذا نظروا اليهم» قال موسيو (جلاجو) : ويكفى ان تكون المرأة ظريفة لتنال عطف العدول

العدول قساة القلوب على من يرتكب الجرائم التى يخشون هم منها . وهذه الجرائم هى التى تهم الهيئة الاجتماعية ـ ورجاء

يرتكبي الجرائم التى مصدرها الغيرة والحب وهكذا

فقلما يقسون على البنات الامهات اللاتى يقتلن مواليدهن ولا على البنت يخدعها الخادع ويهجرها فترميه بماء النار . وذلك لان العدول يشعرون انه لاخطر من مثل هذه الجرائم على الهيئة الاجتماعية وأنه مادام القانون لايحمى البنت التى هجرها من خدعها يكون نفع جنايتها أكبر من ضررها لان فى ذلك للخداع مزدجراً (١).

والعدول كبقية الجماعات يبهرها النفوذ . لاحظ الرئيس (جيلاجو) انهم ديموقراطيون فى جمهم شرفاء فى عواطفهم فالاسم . والحسب . والثروة الطائلة . والشهرة . والاستعانة بمحام

---

(١) مما تجب ملاحظته أن هذا الفرق الذى جاء به العدول — لاعن قصد — بين الجرائم المضرة بالهيئة والتى لاتكاد تضرها لا يخلو من صواب اذ يجب أن يكون الغرض من القوانين الجنائية حماية الهيئة من المجرمين المضرين بها لا الانتقام لها مطلقاً . غير أن الغالب على واضعى قوانيننا وعلى قضاتنا هى فكرة الانتقام التى كانت سائدة فى زمن الشرائع القديمة . ودليلنا على هذا الميل فى قضاتنا أن الكثير منهم لا يزال يأبى العمل بقانون (بيرانجيه) الذى يبيح ايقاف التنفيذ فلا يقضى المحكوم عليه عقوبته الا اذا عاد فأجرم مع أن جميع القضاة يعلمون جيداً أن تنفيذ العقوبة الاولى يجره حتما الى العود كما يؤيد ذلك الاحصاء . (لعل ذلك مبالغ فيه م) وكأنى بالقضاة يعتقدون انهم اذا افلتوا محكوماً عليه لايكونون قد انتقموا للامة فهم يفضلون خلق مجرم يتعود الاجرام على عدم الانتقام

ذائع الصيت . وكل شئ يتفرد به الرجل ويظهر به كل ذلك عدة كبيرة وسلاح قوى فى يد المتهمين

أراد بعضهم بيان الطريقة التى ينبغى استعمالها فى هذا المقام فوصف أحد محامى الانجليز وكان ذا شهرة فائقة بنجاحه امام محاكم الجنايات ومما قاله :

أول مايجب على المحامى اللبيب الاهتمام به تعمد التأثير على شعور العدول . والاقلال من التقرير والاستدلال أواختيار السهل البسيط من الادلة المادية كما هو الشأن مع بقية الجماعات (كان يترافع وهو يرقب حركات العدول وتحين مناسبة الوقت فكان يقرأ في وجوههم أثر كل جملة وكل كلمة بما أوتى من الفراسة والتجارب ليعرف ماينبغى بعد ذلك وكان يتفرس أولا العدول الذين صاروا من جانبه ويخطو معهم في خطابه الخطوة الاخيرة التى تمكنه من انحيازهم اليه ثم يلتفت لمن يشعر منه بالانحراف عنه ويجتهد في استكناه سبب ميله عن المتهم . وهذا أدق مافى عمل المحامى . لان الاسباب التي تبعث الرغبة فى الحكم على رجل بالعقوبة كثيرة بقطع النظر عن كون الحكم عدلا أم ظلماً)

ولقد تلخص فن الخطابة فى هذه الاسطر على قلتها وبان ان السبب فى عدم تأثير ماحضر منها من قبل هو اضطرار الخطيب

الى تغيير الكلام طبقاً لاثره في نفوس السامعين

وليس من الضروري ان يكسب الخطيب ميل جميع العدول بل يكفيه أكتساب قلوب الرؤساء الذين هم قادة البقية وبهم يتكوّن رأي الاغلبية . فالذي يقود العدول انما هم نفر قليل منهم كما يقع ذلك في كل الجماعات . قال المحامي الذي مرّ ذكره « عرفت بالتجربة انه متى حان وقت اصدار القرار يكفي واحد أو اثنان من أهل العزيمة في الرأي لاقناع البقية »

فالواجب اذن اقناع هذين الاثنين أو الثلاثة . باستعمال الحذق فيما يلقى في نفوسهم . وأول ماينبغي فعله هو الاجتهاد في اعجابهم لان الرجل في الجماعة اذا أعجبه المتكلم صار قريب الاقتناع وقبل بالسهولة الادلة التي تعرض عليه كيفما كانت فقد قرأت في بعض الكتب عن موسيو (لاشو) الحكاية الآتية « من المعروف عنه أنه كان في مرافعاته إمام محكمة الجنايات لايفتر عن ملاحظة العدلين أو الثلاثة الذين كان يتفرس فيهم انهم أصعب مراساً من البقية وانهم أهل النفوذ فيهم . وكان يتمكن غالباً من التغلب عليهم واتفق له مرة في الريف انه لحظ بين العدول واحداً استعمل لاقناعه أشد وسائل الخطابة ثلاثة ارباع الساعة على غير جدوى . وكان جالساً في أول الصف الثاني وهو السابع حتى كاد اليأس يدرك

الخطيب وبينما لاشو مندفع فى البيان والبلاغة تتدفق من فيه اذا به قطع الكلام فجأة والتفت الى رئيس المحكمة قائلا « سيدى الرئيس أتسمحون فتأمرون باسدال الستار الذى امامنا فان الشمس تخدش عينى حضرة العدل السابع » فاحمر وجه العدل السابع وتبسم وشكر وقد صار من صف الدفاع)

قام فى هذه الايام كثير من الكتاب ومنهم الفطاحل وشددوا النكير على نظام العدول مع أن وجودهم هو الضمان الوحيد الذى يقينا شر الخطأ الكثير الوقوع من طائفة لا رقيب عليها [(١)] ومنهم من يذهب إلى وجوب حصر اختيار العدول فى طبقة المستنيرين ولكننا أقمنا الدليل على أن قراراتهم فى هذه الحالة لن تختلف مع التى تصدر الآن . ومنهم من يتذرع بالخطأ

(١) المحاكم عندنا هى المصلحة الوحيدة التى تكاد تكون لا مراقبة على اعمالها ومع ما أتته الامة الفرنساوية من الثورات لا يوجد فيها حتى الآن قانون مثل قانون (الافراج) الذى تفتخر به الامة الانكليزية . نحن قد نفينا جميع الظالمين . ولكننا اقمنا فى كل مدينة قاضياً يتصرف فى شرف أهل الوطن وحريتهم كما يشاء . قويضى تحقيق خرج حديثاً من مدرسة الحقوق وله القدرة المنفرة على سجن أعلى الوطنيين منزلة كما يريد لمجرد الشبهة منه فى اجرامهم. وليس من يحاسبه على عمله . وله القدره على ابقائهم فى سجنهم ستة أشهر بل سنة

الذى يقع من العدول فيذهب إلى تبديلهم بالقضاة ونحن لاندرى كيف غاب عنهم إن ذلك الخطأ الذى بالغوا فى نسبته إلى العدول إنما سبقهم به القضاة ، لان المتهم لايمثل بين يدى أولئك إلا بعد اعتباره جانيا من كثير من هؤلاء ، من قاضى التحقيق ورئيس النيابة ودائرة الاتهام. ألا يرى انه لو سلم الحكم النهائى عليه إلى القضاة بدل العدول فاتته الفرصة الوحيدة للوصول إلى اظهار براءته. ان يخطئ فقد اخطأ القضاة من قبلهم ، فالوزر على هؤلاء وحدهم فى كل خطأ قضائى مفزع كالحكم الذى صدر أخيراً على الطبيب (فلان) إذ اضطهده أحد قضاة التحقيق المعروف بقصر العقل لان شابة تكاد تكون من البله أتهمته بأنه أسقط حملها مقابل جعل قدره ثلاثون فرنكا ، ولولا ثورة الرأى العام وصدور العفو عنه لذلك عقب الحكم عليه لارسل إلى سجن الاشغال الشاقة . ظهر فى هذه الحادثة أن خطأ الحكم كان فاحشاً بمقدار إجماع الناس على وضوح براءة المحكوم عليه وكان القضاة أنفسهم مقتنعين

بحجة التحقيق ثم يخلى فى سبيلهم ولا ضمان لهم عليه ولا يكلف لهم باعتذار يفعل ذلك بمقتضى (امر القبض) وهو مساو (لخطاب السجن) الذى عرفه اباءنا الاولون غير أن هذا الاخير كان لا يجوز استعماله الا للعظماء من الاكابر وأما الاول فهو اليوم فى يد طبقة من الوطنيين هم بعيدون جداً عن أن يكون الاكثر تهذيباً والاكبر استقلالا

بذلك لكن تحزبهم لطائفتهم دفعهم إلى استنفاد كل وسيلة ليمنعوا العفو عن ذلك البريء . والحاصل انه متى كانت الدعوى ذات أحوال خصوصية فنية لايدركها العدول ترى هؤلاء مضطرين الى الاخذ بأقوال النيابة العمومية لاعتقادهم أن الذي حقق التهمة قضاة لهم خبرة تامة بمثل هذه المسائل . وليت شعري من يكون المخطئ الحقيقي حينئذ العدول أم القضاة . يجب أن نحرص على العدول حرصنا على النفيس فربما كانوا هم الجماعة التى لايمكن أن يقوم الفرد مقامها . وهم الذين يتيسر وحدهم أن يخففوا من شدة القانون فهو بمقتضى كونه واحداً لجميع الناس أعمى يضع القواعد مطلقة ولا تعرف الشواذ . أما القضاة فلا تدخل الشفقة عليهم من باب . ولا يعرفون الا النص وهم قساة بمقتضى صناعتهم . فلا يفرقون في الحكم بين وغد ثقيل النفس المجرمة وفتاة هجرها من غواها وعضها الفقر فوارت مولودها . لكن العدول يشعرون بفطرتهم أن تلك الفتاة التي خدعت أقل إجراماً من الذى خدعها ولا سلطان للقانون عليه وانها جديرة بكل عطف وحنان

لقد عرفت حقيقة روح الطوائف كما عرفت روح الجماعات الأخرى . ولكنى لم أوفق إلى معرفة حالة أكون متهما فيها

بجرم وأفضل القضاة على العدول ليحكموا فيها . لان بعض الامل في البراءة أمام هؤلاء والامل ضعيف أمام أولئك . حذار من سطوة الجماعات وحذار ثم حذار من سطوة بعض الطوائف فقد تاين الاولى ولكن الثانية لاتاين أبداً

الفصل الرابع

جماعات الانتخاب

الصفات العامة لجماعات الانتخاب ـ طريقة اقناعها ـ الصفات التي يجب ان تكون للمترشح ـ ضرورة النفوذ ـ السبب في ان العملة والصناع قلما ينتخبون النائب من بينهم ـ سلطان الالفاظ والجمل على الناخب ـ صورة المناقشات الانتخابية ـ كيف يتكون رأى الناخب ـ سلطان اللجان ـ في انها تمثل اشد صور الاستبداد ـ لجان الثورة الفرنساوية ـ من المتعسر الاستعاضة عن الاقتراع العام كيفما كانت قيمته ضعيفة ـ في بيان ان النتيجة تكون هي بذاتها اذا قصر حق الانتخاب على فريق من الاهلين ـ في معنى الاقتراع العام عند كل امة

من الجماعات المختلفة العناصر جماعات الانتخاب أعني المجامع التي تنتخب القائمين ببعض وظائف معينة. ولما كان عملها محصوراً في دائرة محدودة وهو اختيار واحد من بين أفراد معينين لا يظهر فيها إلا بعض الصفات التي تقدم بيانها. فالذي يشاهد عندها ضعف القدرة على التعقل. وفقدان ملكة النقد. وسرعة الغضب. والتصديق. والسذاجة. ويرى في قراراتها أثر القواد

وأثر العوامل التى مرّ ذكرها . أسـيء التوكيد . والتكرار . والنفوذ . والعدوى

فلنبحث فى طريقة إقناعها الانا إذا عرفنا أنجع الوسائل فى ذلك وضحت لنا روحها تمام الوضوح

أول صفة يجب أن تكون للمترشح هى النفوذ . ولا يقوم مقام النفوذ الذاتى إذا فقد إلا النفوذ المكتسب من الثروة . حتى أن الذكاء الفائق بل النبوغ ليسا من الوسائل التى تؤدى إلى النجاح كثيراً فى هذا الباب

ولا غنى للمترشح عن النفوذ لانه العدة الكبرى التى تمكنه من التسلط على النفوس بدون أن يتناظر فيه . والسبب فى كون العملة والصناع لا ينتخبون من ينوب عنهم من صفوفهم هو أنه لانفوذ عندهم لمن خرج من بينهـم واذا اختاروا فى النادر واحداً من طبقتهم فانما ذلك لكى يضربوا به أحـد العظماء كمعلم كبير الشأن ممن لهم سطوة على الناخب دائماً فينزع هذا إلى مخالفته متخيلا أنه يصير بذلك سيداً عليه لحظة من الزمان

إلا أن النفوذ وحده لا يضمن النجاح لصاحبه فى الانتخاب لان الناخب يجب أن يتملق ويمنى بنيل ما يصبو اليه من الرغبات فينبغى أن يساق اليه من التملق ما يعجزه حمله وان لايحجم عن

التكفل له بما يخرج عن حد المعقول من الوعود والامانى . فان كان عاملا فكل ذم في معلمه قليل . أما المترشح المزاحم فانه يجب أن يدخل اليه من طريق التوكيد والتكرار والعدوى لاثبات أنه أخس الناس وانه مجرم أثام . ومن البديهى أنه لا محل لاقامة دليل ما على ذلك ، فان كان الخصم لايعرف روح الجماعات مال إلى تبرئة نفسه بالحجة والبرهان بدل أن يقابل التوكيد بالتوكيد ومن ثم يفقد كل أمل في النجاح

أما البرنامج الذى يحرره المترشح ببيان ما ينوى من الاعمال فينبغى أن لا يكون صريحاً حتى لا يتخذه خصومه حجة عليه لكن يجب أن يطيل في البرنامج الشفهي ما استطاع ولا خوف عليه من الوعد باجراء أعظم الاصلاحات فان ذلك يؤثر حالا فى نفوس الناخبين وهو فى حل منه آجلا إذ القاعدة المطردة أن الناخب لا يبحث أبداً فى هل المنتخب جرى طبقاً لتصريحاته التي كانت السبب فى انتخابه

ومن هنا يتبين أن جميع عوامل الاقناع التى تقدم ذكرها هى في جماعات الانتخاب . بقى علينا ان نذكر الالفاظ والجمل مما بينا تأثيره السحرى فى النفوس . الخطيب ألذى يعرف كيف يتصرف بها يمكنه ان يوجه الجماعة حيث يشاء . فلمثل (رأس

المال الدنس) و (اولئك المحتالين الادنياء) و (العامل الجليل) و (جعل الاموال شائعة بين الجميع) وهكذا . لمثل هذه الالفاظ تأثير لا يزال كبيراً وان كان الناس قد صاروا يمجونها . فاذا كان المنتخب ممن أسعدهم الحظ ووفق لايجاد صنعة جديدة خالية من المعنى المحدود لتصيب بذلك أهواء النفوس المختلفة كان نجاحه باهراً وفوزه محتما . والذى أوقد نار الثورة الدمويه فى اسبانيا سنة ١٨٧٣ انما هو لفظ من تلك الالفاظ السحرية ذات المعانى المضطربة التي يفهم منها كل واحد حسب مايشتهي . ولقد يحسن بنا ايراد كيف كان ذلك نقلا عن أحد كتاب ذاك الحين قال « ظن المتطرفون ان الجمهورية الجامعة للسلطة عبارة عن ملوكية خفية فارضاهم مجلس الامة وقرر بالاجماع ان تكون الجمهورية اتحادية من غير ان يعرف أحدهم معنى ماأقر عليه . لان الصنيعة كانت قد أخذت بلب الناس أجمعين فسكروا بخمرتها . وغالوا في طلاوتها وقالوا لقد قامت فى الارض مملكة الفضيلة والسعادة » وكان الجمهور يرى من المسبة العظيمة ان خصمه لا يعترف له بنعت (الاتحادى) . وكان بعض الناس يسلم على بعض بقوله (سلام على الجمهورى الاتحادى) . أما المعنى الذى كان يحضرهم من هذه التسمية فنهم من كان يذهب الى أنه عبارة عن اطلاق

الأقاليم من كل قيد ليحكموا أنفسهم باستقلال . ومنهم من كان يظن ان النظام الجديد يشبه نظام الولايات المتحدة فى أمريكا. وآخرون يرون أنه توزيع السلطة وتجزئة طريقة الحكم فى البلاد . والبعض كان يفهم أن كل سلطة قد بادت وأن الوقت حان لتصفية حساب الهيئة الاجتماعية . ونادى الاشتراكيون فى برشلونه وفى الاندلس باستقلال كل قرية بنفسها . وذهبوا الى وجوب انتخاب عشرة آلاف نائب عن جميع البلاد الاسبانية . كلهم أحرار لا يحكمهم غير أنفسهم . وقالوا بالغاء الجيش والشرطة. ولم يمض الا قليل حتى أخذت الثورة تمتد في الاقاليم الجنوبية من مدينة الى مدينة ومن قرية الى أخرى . فكانت كل بلدة فرغت من اعلان استقلالها تعمد الى تخريب الاسلاك البرقية والسكك الحديدية لتقطع المواصلة بينها وجيرانها ومدريد ولم تبق نزلة حقيرة الا نزعت الى الاستقلال بنفسها . وحل محل الاتحاد تمزق فى الاقاليم علامته التوحش والنار والدماء فأقيمت المذابح فى كل صقع وناد

أما تأثير المعقول فى جماعات الانتخاب فلا يجهل ضعفه الا الذين لم يطلعوا مرة على ما يجرى فى اجتماعات الانتخابات لانها لا تحتوى على شيء غير تناول التوكيدات المتناقضة والشتائم

والمخازى . ولكنها مجردة عن كل حجة وبرهان . واذا اتفق وساد السكون لحظة فذلك لأن أحد الحاضرين ممن لا يقتنعون بالسهولة خرج وسط الجمع ليلقى على المترشح سؤالا يعجزه الجواب عنه . وذلك يلذ دائماً للسامعين الا ان هذه اللذة لا تدوم طويلا لان صوت السائل لا يلبث ان يغيب فى صخب المعارضين . وانى ناقل للقراء عن الجرائد اليومية شيئاً مما يجري فى الاجتماعات العمومية ليكون مثلا على ما تقدم . (أقام بعضهم اجتماعا وطلب من الحاضرين انتخاب الرئيس فقامت القيامة وأسرع الفوضويون الى محل اللجنة ليستولوا عليه ووقف فى وجههم الاشتراكيون فتلاكم الفريقان وانهالت الشتائم من مشاء . وبائع ذمته . وهكذا وخرج أحد الحاضرين وعينه مورمة . وانتهى الحال ببقاء اللجنة فى مكانها وسط الهياج والاصطخاب وتمت الرئاسة للوطنى فلان وأخذ الاشتراكيون يقطعون عليه الكلام وهو يحمل عليهم حملة منكرة . فقابلوه بالوغد . قاطع الطريق . الدنىء . وهكذا من النعوت. فقابل الخطيب ذلك بنظرية مقتضاها ان الاشتراكين من البله أو النصابين)

وهذا مثل آخر (نظم الحزب النحاز لألمانيا مساء أمس فى قاعة التجارة بشارع كذا اجتماعاً كبيراً استعداداً لعيد عمال

أول شهر مايو . وتقرر ان يكون الهدوء سائداً والسكون شاملا وقد طعن الوطني فلان على الاشتراكيين بأنهم أوغاد نصابون وعليه تشاتم الخطباء والحضار وانتقلوا من المشاتمة الى الملاكمة. فاشتركت الكراسي والموائد في الخصام الخ)

ولا يحسبن القراء أن هذا النوع من الخطابة خاص بفريق من الناخبين وانه آت من درجتهم الاجتماعية بل تلك صورة تتصف بها المناظرة في كل جمعية أياً كانت حتى التي تتألف من مستنيرين . وقد بينت ان الافراد في الجماعات يتقاربون الى حد التساوي في ملكات العقل . ونحن نجد الدليل على ذلك في كل مكان . اليك مادار في اجتماع كان الحاضرون فيه كلهم من الطلبة نقلا عن جريدة الطان الصادرة في ١٣ فبراير سنة ١٨٩٥ « كلما أوغل الليل ازداد الهياج ولا أظن ان خطيباً واحداً لفظ جملتين من دون أن يقطع الكلام عليه اذ الصراخ كان يعلو في كل لحظة تارة هنا وتارة هناك وآونة من جميع الجهات هؤلاء يصفقون وأولئك يصفرون وكانت المناقشات الشديدة تحتدم بين السامعين فترى العصى تهدد الرؤوس والضرب على الموائد كالنغمة والاصطخاب مقذوفا الى المشوشين . هذا يقول اخرجوه وذاك يصيح الى منبر الخطابة . ثم قام موسيو فلان وجعل يخاطب الحضور بقوله

هذا اجتماع ما أشد قبحه وجبنه . هذا اجتماع وحشي . دنئ . رذيل متعصب . ثم أعلن أنه سيهدمه الخ)

هنا يرد على الخاطر كيف يتمكن الناخب من تكوين رأيه وسط هذه الضوضاء . غير أن هذا الخاطر يؤذن بأن صاحبه يجهل تمام الجهل مقدار الحرية التي توجد في المجامع . وان آراء الجماعات انما تأتيها من طريق التسلط عليها لا من طريق الاقناع والذي يكون الآراء ويجرى الانتخاب في الحالة التي تبحث فيها هي اللجان . واللجان يقودها في الغالب بائعو النبيذ لما لهم من السيطرة على العمال بواسطة تسامحهم معهم في تأجيل ثمن مايشربون. قال موسيو (شيرر) وهو من أكبر أنصار الديموقراطية في الوقت الحاضر « أتعرفون ماهي لجنة الانتخاب . انها عبارة عن مفتاح نظاماتنا وأهم قطعة من الآلة السياسية عندنا . ان الذي يحكم فرنسا الآن هي اللجان [1] »

لذلك ليس من الصعب جداً التسلط على اللجان اذا كان

---

(١) اللجان على اختلاف مسمياتها كالنوادي والشركات هي أشد الجماعات خطراً من حيث القدرة . فهي التي تمثل أعظم جمعية لا أثر للشخصية فيها . ولذلك كانت أقسى الجماعات يداً وأكبرها تسلطا فلا يشعر القواد الذين يتكلمون بلسان اللجان ان هناك تبعة ترجع اليهم . فهم يضربون في كل صوب آمنين . وما كان يخطر على بال أشد المستبدين عسفاً

المترشح مقبولا وذا يسار يفى بما يحتاج اليه في مثل ذلك . فثلاثة ملايين فرنك كفت باعتراف المتبرعين أنفسهم لانتخاب القائد (بولونجيه) فى مقاطعات عدة ..

تلك روح جماعات الانتخاب مثلها مثل روح بقية الجماعات لا أحسن ولا أردأ

وعليه فاني لا أستخلص مما تقدم نتيجة ضد الانتخاب العام . ولو أن الأمر يبدى لابقيته كما هو لاسباب عملية تنتزع من بحثنا فى روح الاجتماع . فلنذكرها

لايسع أحداً انكار مضار الانتخاب العام لانها واضحة كالشمس . فلا يمارى فى ان المدنية عمل طائفة صغيرة من أهل العقول الراقية شبيهة بقمة هرم تتسع طبقاته كلما انحطت الدرجة العقلية . وتلك الطبقات تمثل الطبقات البعيدة للأمة . وعظمة المدنية لاتتوقف طبعاً على رأى العناصر الوضيعة التى ليس لهامن

ان يأمر بمثل ما أمرت به اللجان الثورية التى فرقت شمل رجال (الاتفاق) وحصدتهم حصداً كما قال (باراس) . ظل (رو بسبيير) قابضاً على الحكم كله بيده طول الزمن الذى كان ينطق فيه باسم اللجان فلما اختلف معها بسبب التشدد فى الرأى وانفصل عنها أدركته الداهية . اجل ان حكم الجماعات هو حكم اللجان أعنى حكم القواد . ولن يهتدى الانسان الى حكم أشد وأقسى

القيمة الاكثرة العدد . ومن المحقق أيضاً ان آراء الجماعات خطرة
فى غالب الاحيان فقد كلفتنا حتى الآن غارات كثيرة على بلادنا
واذا تم لها ماتعده من فوز الاشتراكية فمن المظنون ان أهواء
سيادة الامة تكلفنا أضعاف ذلك أيضاً

الا أن هذه المطاعن القوية نظراً تفقد قوتها تماماًمن الجهة
العملية اذا فكرنا في قوة الآراء التى لاتغالب متى صارت عقيدة
من العقائد وعقيدة سيادة الجماعات لاتختلف من الجهة النظرية مع
العقائد الدينية التى وجدت فى القرون الوسطى من حيث الضعف
فى كل . غير ان ما كان لهذه من القوة فى ذلك الزمان هو للاولى
فى هذه الايام فهي منيعة حينئذ كما كانت أفكارنا في تلك القرون.
لنفرض أن رجلا من أهل الافكار الحرة أى المطلقة السراح
وجد فى القرون الوسطى أتظن أنه كان يتحرك لمقاومة الافكار
الدينية المتمكنة في القوم بعد أن يرى ما لها من السيادة المطلقة
أو كان يفكر فى إنكار وجود الشيطان وحرمة يوم السبت
إذا مثل أمام قاض يريد إحراقه بالنار بتهمة أنه حازب الشيطان
أو ذهب إلى المعبد يوم السبت . أنه لا مناقشة مع الجماعات كما
أنه لاجدال مع العواصف . ولعقيدة الاقتراع العام في أيامنا من
القوة ما كان للعقائد الدينية فى ذلك الزمان فترى الخطباء والكتاب

يذكرونه مقرونا بالتجلة والاحترام مصحوبا بملق لم يعرفه لويز الرابع عشر . وجب إذن أن يسار معه كما يسار مع العقائدالدينية، وللزمان أن يفعل فى الجميع فعله. على أنه لا فائدة من التحفز لزعزعة هـذه العقيدة مع وجود مايؤيدها في الظاهر . ولقـد أصاب موسيو (توكفيل) حيث قال (ليس لاحد فى زمن المساواة اعتقاد في أحد . لما بين الكل من التشابه . غير أن هذا التشابه يجعلهم يثقون تمام الثقة بحكم الجمهور لانهم لا يتصورون أن الحقيقة لا تكون من جانب العدد الاكبر وفيه ذلك الجم الغفير من المستنيرين) .

قد يذهب بعضهم إلى أن حالة انتخابات الجماعات تتحسن بقصر حق الانتخاب على أهل الكفاآت. أما أنا فلا أسلم بذلك لحظة واحدة للسبب الذي قدمته وهو انحطاط درجة الجماعات العقلية على اختلافها كيفما كان تركيبها . فان الناس يتساوون فى الجماعة دائماً . وليس رأى الاربعين عضواً الذين تتركب منهم جمعية المعارف فى مسألة عامة أحسن من رأى أربعين سقاء . ولا أظن أن رأيا أقره الاقتراع العام وشدد النكير عليه من أجله كاعادة الامبراطورية كان يتغير لو أن المقترعين كانوا كلهم من أهل الادب والعلماء . لان الذى يجعل الرجل ذا بصر بالاحوال

الاجتماعية ليس كونه يعرف اللغة اليونانية أو الرياضيات أو كونه معماريا أو طبيباً بيطريا أو طبيباً أو محاميا . انظر إلى علماء الاقتصاد عندنا تر هم كلهم من المستنيرين وأغلبهم مدرسون أو أعضاء في جمعية المعارف ومع ذلك لم يتحدوا على مسألة عامة أبداً كحماية التجارة أو توحيد معدن النقود وهكذا . ذلك لان علمهم ليس إلا صورة مخففة من الجهل العام . وكل جهل يستوى أمام المسائل الاجتماعية التي لاحصر للمجهول فيها

وعلى ذلك إذا قصرنا الانتخاب على قوم أفعموا علما لا نصل إلى نتيجة أحسن مما لو تركناه فى يد أهل زماننا لان أولئك العلماء يعملون على الأخص بحسب مشاعرهم ومنافع طائفتهم فلا نكون قد ذللنا شيئا من العقبات التى أمامنا بل نكون قد زدنا عليها بدخولنا تحت نير الاستبداد الذى تنفرد به الطوائف

نتيجة انتخاب الجماعات واحدة وهو انما يترجم عن الرغائب والحاجات التى للشعب بمقتضى فطرته سواء كان الانتخاب عاماً أو محصوراً فى طبقة أو طبقات فى جمهورية أو ملوكية فى فرنسا أو فى البلجيك أو اليونان أو البرتغال أو اسبانيا . ومتوسط المنتخبين فى كل أمة يمثل روح شعبها . وهو لا يكاد يتغير من جيل إلى جيل

وهنا نجد مرة أخرى نظرية الشعب ذات الاهمية الكبرى

وتلك النظرية الاخرى المشتقة منها وهى ضعف تأثير النظامات والحكومات في حياة الأمم إنما تسير طبقاً لأرواح شعوبها. وبعبارة أخرى طبقاً لما ورثته عن آبائها وهو ما تمثله تلك الروح فالشعب هو مستودع احتياجات كل يوم . وتلك الاحتياجات هي الملوك الخفية التى بيدها زمام مآلنا

الفصل الخامس

المجالس النيابية

أكثر الصفات العامة للجماعات المختلفة العناصر غير الاسمية توجد في الجماعات النيابية ـ بساطة الافكار ـ الانفعال وحدوده ـ الافكار الثابتة والافكار المتقلبة ـ السبب في أن التردد هو الغالب ـ شأن القواد ـ سبب نفوذهم ـ هم الذين لهم الكلمة في المجلس بحيث ان رأى الجميع يرجع إلى رأى عدد محدود من الاعضاء ـ سلطان القواد الشامل ـ أركان خطابتهم ـ الالفاظ والصور ـ في أن الضرورة تقتضي أن يكون القواد مقتنعين بما يلقون من الآراء وأن يكونوا من قصار النظر ـ في أنه يستحيل أن تقبل آراء الخطيب الذي لا نفوذ له ـ غلو مشاعر الهيئة سواء كانت طيبة أو رديئه ـ في انها تتحرك أحياناً بحركة نفسية ـ في جلسات « المتعاهدين » ـ في الاحوال التي لا تكون للهيئة فيها صفة الجماعة ـ تأثير الاختصاصيين في المسائل الفنية ـ منافع النظام النيابي ومضاره في كل أمة ـ في أن النظام موافق لاحتياجات العصر ولكنه يؤدي الى تبذير الاموال وتحديد جميع الحريات شيئاً فشيئاً ـ خلاصة الكتاب

المجالس النيابية جماعات مختلفة العناصر غير اسمية . وهي تتشابه كثيراً في صفاتها وان اختلفت طريقة تكوينها بحسب الامم والازمان. ولروح الشعب فيها أثر هو إضعاف تلك الصفات او تقويتها. الا انه لا يمنع من ظهورها البتة وتتشابه المجالس النيابية في البلاد

المختلفة كاليونان وإيتاليا والبرتقال وأسبانيا وفرنسا وأمريكا من حيث المداولات والقرارات تشابها عظيما فتتشابه الصعوبات الناشئة عن ذلك أمام جميع الحكومات

النظام النيابي هو أقصى ماتصبو اليه الامم المتحضرة فى العصر الحاضر لانه يعبر عن فكر سائد فى الناس ـ وان كان علم النفس يراه خطأ ـ وهو أن العدد الكثير أقدر من العدد القليل على البت فى الامور بالعقل والروية والاستقلال

والصفات المميزة للجماعات توجد فى المجالس النيابية من بساطة الافكار . وسرعة الانفعال وقابلية التأثر برأى الغير . والغلو في المشاعر ونفوذ القواد. إلا أن لها بمقتضى تكوينها الخاص بعض صفات لاتشترك فيها مع بقية الجماعات واليك بيانها

أما بساطة الافكار فمن أهم مميزات المجالس النيابية فتشاهد عند جميع الاحزاب خصوصاً عند الامم اللاتينية الميل إلى حل المسائل الاجتماعية العويصة بابسط المبادىء النظرية وبقوانين عامة يطبقونها على جميع الاحوال ، ومن الواضح أن المبادىء تختلف باختلاف الاحزاب . لكن الرجل فى الجماعة يرمى دائماً إلى تقدير تلك المبادىء باكثر من قيمتها ويذهب فيها إلى آخر ماتؤدي اليه من النتائج . لذلك كانت الافكار التى تمثلها المجالس النيابية هى المتطرفة

وأكمل مثال لبساطة المجالس النيابية جماعة (اليعاقبة) أيام ثورتنا الكبرى . فقد كانوا كلهم من أرباب المذاهب وكلهم من المناطقة . وكانت رؤوسهم ملأى بالكليات المقولة بالتشكيك . لذلك كان همهم تطبيق المبادىء المقررة من غير التفات لظروف الاحوال فصح ماقيل عنهم من أنهم عبروا الثورة ولم يروها . فهم قوم اتخذوا مبادئهم مرشداً وظنوا أنهم يتمكنون بها من خلق هيئة اجتماعية جديدة ويرجعون بالمدنية الراقية إلى مدنية كانت للامة قبل تطورها الحالى . كذلك كانت الوسائل التى استعملوها فى تحقيق أحلامهم من أبسط الوسائل . فاذا اعترضتهم عقبة استعملوا العنف فى تذليلها وكانت الروح السارية فيهم جميعاً واحدة وان كانوا فرقاً شتى

وأما التأثر بالرأى فقابلية المجالس النيابية له شديدة والتأثير يأتى من قبل القواد ذوى النفوذ كما هو الشأن فى الجماعات كلها إلا أن لقابلية المجالس النيابية في هذا الباب حدوداً واضحة يجب ذكرها

فلكل عضو رأى ثابت في المسائل المتعلقة باقليمه لا يمكن زحزحته عنه ولا تؤثر فيه حجة أو دليل فلو بعث (ديموستين) ما أمكنه أن يقنع عضواً بعدم وجوب حماية المهن التى لبعض

أصحابها النفوذ الاول فى الانتخابات . ذلك لان التأثير الذى وقع عليه أولا من الناخبين أوجد له رأيا ثابتاً وعطل فيه ملكة الاقتناع بما يخالفه . ولعل أحد نواب مجلس العموم الانكليزى ممن طال عهدهم فيه كان يشير إلى تلك الافكار التى رسخت من قبل فى ذهن كل عضو حتى صارت لا تقبل التغيير ولا التعديل لتأثير ضروريات الانتخاب حيث قال « سمعت مدى خمسين عاماً قضيتها في (ويستمنستر) آلافا من الخطب فالقليل منها حملنى على تغيير رأيى ولكن لم يكن لواحدة منها أن تحملنى على تغيير صوتى عند الاقتراع »

وإذا دارت المناقشة فى مسألة عامة كاسقاط الوزارة أو تقرير ضريبة جديدة وهكذا تقلبت الآراء وظهر نفوذ القواد لكنه لايساوى مالهم في الجماعات الاعتيادية . إذ لكل حزب قواد قد يعادل نفوذهم نفوذ قواد الحزب الآخر . فيصبح الاعضاء بين مؤثرين متضادين ولذلك يترددون فيقر الواحد منهم على أمر وبعد ربع ساعة يعمل بنقيضه كأن يقبل فى القانون نصا يهدم المبدأ الذى أقامه عليه مثال ذلك الاقرار على قانون يبيح لاصحاب المعامل حق اختيار العمال وطردهم ثم الاقرار في الجلسة ذاتها على تعديل يجعل هذا الحق أثراً بعد عين

وضح مما تقدم أن لكل مجلس في كل دور أفكاراً ثابتة وأخرى غير ثابتة ولما كان الغالب فيما يعرض عليه هي المسائل العامة كان التردد فى الآراء هو الغالب لما يجتمع فى نفس كل عضو من تأثير الناخبين وتأثير القواد فى المجالس

على ان القواد هم أصحاب الكلمة في أغلب المسائل التي ليس للاعضاء فيها رأي ثابت من قبل . وضرورة أولئك القواد ظاهرة . لانهم يوجدون فى كل هيئة نيابية عند جميع الأمم بعنوان رؤساء الفرق . أولئك الرؤساء هم السلاطين في كل مجلس. لان الرجل في الجماعة لا يستغني عن السيد . ومن هنا كانت قرارات المجالس النيابة لا تمثل إلا رأى عدد صغير من أعضائها

والقليل من تأثير القواد فى تلك المجالس راجع الى فصاحتهم . وكثيره مستمد من نفوذهم . برهانه انهم اذا فقدوا نفوذهم انعدم تأثيرهم

وهذا النفوذ شخصى لا دخل فيه للاسم والشهرة . ومن غرائب الأمثلة ما أتى به موسيو (جول سيمون) فى عرض كلامه فى مجلس نواب سنة ١٨٤٨ الذى كان عضواً فيه قال :

« لم يكن لويز نابليون شيئاً مذكوراً قبل أن يتم له السلطان بشهرين

ارتقى (فكتور هيجو) منبر الخطابة فلم ينل نجاحاً بل سمعه الناس كما يسمعون (فيلكس بايات) ولكنهم لم يصفقوا له مثله . قال لى (فولايل) عن (بايات) انه لا يحب أفكاره ولكنه كاتب كبير وهو أكبر خطباء فرنسا : كذلك (ادجار كينيه) على علمه وقوة مفكرته لم يكن له شأن يذكر فان صيته ذاع قبل افتتاح المجلس فلما جاء اليه تخلفت عنه شهرته

والمجالس النيابية هى المكان الوحيد فى الارض الذى يضعف فيه نور الذكاء الفائق فليس هناك للفصاحة قيمة إلا ما وافق منها أحوال الزمان والمكان . ولا اهتمام إلا بالخدم التى أديت للاحزاب لا للوطن . واذا كانت المجالس النيابية قد أكبرت شأن (لامارتين) سنة ١٨٤٨ و (تيير) سنة ١٨٧١ فما ذلك إلا بتأثير الضرورة الشديدة الحالة ولهذا بعد ان زال الخطر شفى الناس من واجب الشكران ومن الخوف معاً »

نقلت هذا القول للاستفادة من الحوادث الواردة فيه لا من البيان الذى اشتمل عليه لانه يدل على علم ناقص جداً بأحوال النفس اذ الجماعة لا تكون كذلك اذا عرفت لقائدها ما قد يكون أداه من الخدم للوطن أو للاحزاب على حد سواء والجماعة انما تطيع قائدها موقتة بسلطان نفوذه فيها من دون

أن يقترن ذلك عندها بمنفعة أو شكران .

لذلك اذا كان للقائد نفوذ كبير فتسلطه عظيم . وكلنا يعرف هذا النائب الشهير الذى كانت له الكلمة العليا عدة سنين بما أوتى من النفوذ حتى فقد مركزه على أثر بعض الحوادث المالية . كانت اشارة منه تكفى لقلب الوزارة وقد أوضح أحد الكتاب مقدار تأثير ذلك النائب فى الكلمات الآتية « انا مدينون لموسيو فلان وحده بكوننا اشترينا التونكين بثلاثة أضعاف ما تساويه وبكوننا لم نضع فى مدغشكر إلا قدماً متزعزعة . وبكوننا غبنا فى مملكة كاملة جنوب نهر النيجر وبكوننا أضعنا ما كان لنا من النفوذ الخاص فى الديار المصرية إلا أن نظريات موسيو (فلان) قد كلفتنا من الخسائر أكثر من مصائب نابوليون الاول [1]

على انه لا ينبغى تشديد النكير على هذا القائد وان كان قد كلفنا كثيراً لان أكثر نفوذه جاءه من تتبع الرأى العام . ولم يكن الرأى العام إذ ذاك فى المسائل الاستعمارية كما هو عليه الآن .

---

(١) لعل المؤلف يشير الى موسيو كليمانسو الذى سمى هدام الوزارات ولو تأخر صدور هذا الكتاب الى الآن لتغير المؤلف رأيه فى الرجل القابض اليوم على زمام السياسة الفرنساوية المتربع فى رئاسة نظارها ونظارة خارجيتها وله فى السياسة العامة مقام كبير (م)

ومن النادر أن يسبق القائد الرأي العام والغالب انه يسير خلفه ويتبعه فى الخطأ

للقائد في اقناع قومه وسائل غير النفوذ هى التى ذكرناها مراراً . ولابد له في قيادتهم من أن يكون قد وقف على حقيقة الروح السارية فيهم ولو من طريق الوجدان وعرف طريقة الكلام معهم . فينبغي له على الاخص أن يعرف مالبعض الالفاظ من التأثير الذى يجذب نفوس السامعين وأن يكون على جانب من الفصاحة المخصوصة التى تقوم بالتوكيد الشديد الخالى من الدليل وبالصور الآخذة المحلاة بالحجج الناقصة . هذه فصاحة موجودة فى كل مجلس من المجالس النيابية حتى البرلمان الانكليزي الذى هو أكثرها اعتدالا

قال الحكيم الانكليزى (ماين) «من السهل أن نقرأ دائماً مداولات لمجلس العموم مدارها تبادل كليات ضعيفة وشخصيات حادة فلمثل هذه الصيغ الكلية تأثير كبير فى خيال أهل الديمقرطية المحضة . ومن الميسور على الدوام جعل الجماعة تقبل القضايا العامة إذا قدمت لها بألفاظ جذابة ولو كانت من القضايا التى لم يحققها أحد . وربما كانت لاتحتمل التحقيق »

يؤخذ من ذلك أنه لا حدّ لتأثير « الألفاظ الجذابة » المذكورة. وكم اتينا على بيان قوة الالفاظ والجمل . وما ينبغي أن يختار منها مما يمثل صوراً مؤثرة . واليك جملة تمثل ما تقدم اقتطفناها من خطابة أحد قواد مجالسنا « يوم يركب السياسي الافين والفوضوي السفاك ظهرباخرة واحدة تقودهما الى منفاهما في الاراضي الحمية ذلك هو اليوم الذى يتحادث فيه الرجلان ويظهر كل واحد منهما لأخيه ممثلا احدى صورتي نظام اجتماعي واحد » .

فالصورة التي يمثلها هذا المقال واضحة . وقد شعر خصوم الخطيب كلهم انهم مهددون بها . فهم يرون الأراضي الحمية مقرونة برؤيه الباخرة الى تقودهم اليها لأنهم من حزب أولئك السياسيين الذين يهددهم ذلك العقاب . هنالك تولاهم الفزع الذى كان يدخل قلوب « المتعاهدين » إذ يسمعون (روبسبيير) يهددهم بمنجلة[1] الاعدام فيدينون له على الدوام

من مصلحة القواد أن يأتوا بالمبالغات التي لا يجوز في العقل تصورها. فمن ذلك ما أكده الخطيب الذى نقلنا عنه الصورة

---

(١) آلة اعدام تفصل الرأس عن بقية الجسد

المتقدمة ولم يعارضه أحد معارضة تذكر من ان أرباب المصارف المالية والقسوس يواسون الذين يقذفون قنابل الديناميت . وان مديرى الشركات المالية الكبرى يستحقون الجزاء الذى يستحقه الفوضويون . لمثل هذه التوكيدات دائماً أثر فى الجماعات . ولا يرى الخطيب بالتطرف كيفما بالغ وأكد كما أنه لا حرج عليه وان تعسف فى الطعن واشتد فى الهجاء ولا نظير لهذه الفصاحة من حيث التأثير فى السامعين لانهم ان جنحوا المعارضة خافوا تهمة الخيانة أو الاشتراك مع المجرمين

سادت هذه الفصاحة فى المجالس النيابية فى كل زمان كما قدمنا وهى تشتد فى أزمنة الشدة . ومن أفيد المطالعات قراءة الخطب التى كان كبار الخطباء يقولونها في مجالس الثورة فقد كانوا يشعرون بالحاجة الى قطع الكلام حيناً فحينا لتقبيح الجرم وتمداح الفضيلة ثم تنهمر الشتائم من أفواههم على الظالمين . ويقسمون أنهم اما أن يعيشوا أحراراً وإما أن يموتوا . ويقف الحاضرون يصفقون كمن بهم جنّة . ثم يسكن جأشهم فيجلسون

قد يكون القائد أحياناً ذكياً متعلماً ولكن ذلك يكون مضراً به فى الغالب . لان الذكى يميل الى بيان مافى المسائل من أوجه التعقيد . ويقبل المناظرة والتفاهم . وذلك يؤدى الى التسامح

والاغضاء ويكسر كثيراً من حدة العقيدة. وحدة العقيدة لازمة للرسل. وكان أكبر القواد في الامم خصوصاً قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جداً وكان أكبرهم تأثيراً أشدهم قصراً في العقل فان الانسان ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل أعظمهم قدراً وهو « روبسبيير » ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لايجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار. قال بعضهم يصفها « صيغ كلية جارية على كل لسان وشقشقة في الفصاحة المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعتا في نفس خلوها أكثر من انحطاطها نفس تكاد لاتعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع إلا ما تعوده التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله « هل من مبارز » وليس هناك رأى ولا تدبير ولا شاردة . عنف ممل وشدة مسئمة فاذا فرغ القارىء من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة إلى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف (كاميل ديمولان)

من المفزعات ما يناله الرجل ذو النفوذ من السلطة اذا صدقت عقيدته وقصر عقله على انه لابد لاستجماع ذلك في الانسان حتى يستهين بالصعاب ويعرف كيف يريد . وللجماعات شعور كالالهام يهديها الى معرفة الرجل الذى أودعت فيه قوة العزيمة المبنية على صدق العقيدة فتدين لسلطته

إنما ينجح الخطباء فى المجالس النيابية بمالهم من النفوذ لا بقوة البراهين التى يقيمونها . وأصدق شاهد على ذلك أنه إذا وقع لاحدهم ما يفقدهم نفوذه فانه يفقدمعه تأثيره أعنى قدرته على إدارة الآراء كما يشاء

وأما الخطيب المجهول الذى يذهب إلى الجلسة بعد أن يكون قد أعد خطابته ودعمها بالحجج ولم يكن لديه إلا الحجج والادلة فلا رجاء له حتى في الاصغاء اليه . وقد وصف موسيو (ديكوب) وهو أحد النواب ومن علماء النفس المدققين النائب الذى لانفوذ له فى السطور الآتية « إذا استوى – الموصوف – على منبر الخطابة أخرج من محفظته أوراقا فنشرها أمامه على الترتيب وشرع يخطب مطمئنا . وهو يفتخر فى نفسه بأنه سيبث عقيدته لتسكين روح سامعيه . لانه وزن أدلته وحررها . واعد شيئاً كثيراً من الاحصاآت والحجج . وأيقن أن الحق فى جانبه وان معارضنه لا يثبت امام الحقيقة الناصعة التي يأتى بها . هكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه وإصغاء إخوانه لاعتقاده انهم لا يطلبون إلا السجود امام الحق . وبينما هو يخطب اذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين . ثم يتقزز بالضوضاء الناتجة من ذلك الاضطراب . ويتساءل كيف لا يسود السكون . وما

السبب يا ترى فى هـذا الانصراف العام . وما الذى يدور على ألسنة أولئك الذين يتحادثون فيما بينهم . وما السبب القوي الذى يحمل ذاك على ترك مجلسه . يتساءل الخطيب هكذا والحيرة تعلو جبهته فيفرك حاجبيه و يمسك عن الـكلام ويشجعه الرئيس فيعود بصوت مرتفع . فيزيد الاعضاء فى عـدم الاصغاء اليه . فيجهر ويهتز . فتزداد الجلبة حواليـه . ويعود لا يسمع نفسه فيمسك عن الكلام مرة أخرى ثم يخشى أن يدعو سكوته الى أصوات (الاقفال الاقفال) فيرجع الى خطابته بما فيه من قوة . وهناك تعلو الجلبـة ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون »

ومن خواص المجالس النيابية انها اذا تحرك شعورها وارتقت فى الهياج الى درجة معلومة تصير كالجماعات العادية المختلفة العناصر سواء بسواء فتغلو الى النهاية فى مشاعرها . وتذهب الى اقصى مراتب الشجاعة وآخر درجات التطرف في القسوة . اذ ذاك لا يصير الرجل نفسه بل يبعد عنها بعداً يحمله على تقرير ما يخالف منافعه كل المخالفة

والذى يقرأ تاريخ الثورة الفرنساوية يدرك الى أى حد تفقد المجالس شعورها وتخضع لما يطلب منها وان خالف أعز المنافع لدى

أفرادها. كان من أكبر الضحايا أن يتنازل الشرفاء عن امتيازاتهم ومع ذلك فعلوه غير مترددين ذات ليلة من ليالى « الدستورية» وكان تنازل المتعاهدين عن تقديس أشخاصهم منذراً لهم بالويل والدماء ولكنهم فعلوا. وما خشوا تقتيل بعضهم بعضاً ولا أرهبهم اعتقاد كل واحد منهم انه مسوق الى الاعدام لا محالة كما يسوق هو اليوم اخوانه اليه غير انهم كانوا قد وصلوا الى حالة من التهيج جعلتهم كآلات تتحرك من نفسها على ما وصفنا فلم يمد هناك من الاعتبارات ما يقوى على صدهم عن اتباع الهوى المتمكن من صدورهم. اليك ما قاله أحدهم (بيلوفارين) مما يوضح ما ذكره ما كنا لنريد القرارات التى يلومنا الناس من أجلها قبل أن نصدرها بيومين اثنين بل بيوم واحد ولكن المحنة هى التى كانت تمليها » وما أصدق ما كتب.

كانت جلسات التعاقد منفردة باللاشعور كما عرفت بالهياج قال تاين « لقد أقروا وشرعوا ما كانوا يجزعون له أشد الجزع ولم يكتفوا فى ذلك بالحماقيات والجنونيات • بل شرعوا الآثام وقتل الابرياء واعدام الاصدقاء وانضم حزب الشمال الى حزب اليمين وقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد ارسال (دانتون) الى المنجلة وكان رئيسه الطبيعى وموجد الثروة وقائد

زمامها ومال اليمين إلى الشمال فقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد أفظع الاوامر التى أصدرتها الحكومة الثورية وبين أصوات الاعجاب والنشوة تدفق الميل والانعطاف نحو (كولوت ديربوا) و (كوطون) و (روبسبيير) فجدد (المتماقدون) انتخاب أعضاء الحكومة الثورية وابقاءها على منصة الحكم وهى الحكومة القاتلة التى كان يبغضها السهل لجرمها ويمقتها الجبل لانها كانت تحصده. اصطلح السهل مع الجبل واتفق القليل مع الكثير ورضى الجميع بمساعدة قاتليهم على اعدامهم ثم في يوم ٢٢ من الشهر تقدمت رقاب تلك الحكومة الى التقطيع وبعد ذلك بقليل تقدمت اليه أيضاً تلك الرقاب عقب خطاب روبسبيير »

قد يكون الوصف أقتم ولكنه الحق الواقع. والصفات المتقدم ذكرها توجد في المجالس النيابية المتهيجة التى سكرت بخمر فكر من الافكار فتصبو كالقطيع المتحرك يسوقه كل دافع وقد وصفها على هذه الحال موسيو « سبوللر » وهو شورى لا يشك أحد فى صدق أفكاره الدمقراطية وصفاً دقيقاً نذكره للقراء نقلاعن (المجلة الادبية) ويرى القارىء فيه جميع المشاعر المتطرفة التى قدمنا ذكرها وتتمثل فيها التقلبات الشديدة التي تنتقل بها الجماعات من الضد الى الضد من لحظة إلى أخرى، قال موسيو « سبوللر »:

« ان التنافر والحسد وسوء الظن ثم الثقة العمياء والآمال التى لا نهاية لها أوردت الحزب الجمهوري حتفه . فلقد كان له من السذاجة مالا يساويه إلا سوء ظنه المطلق. لا يدرك شرعية الامور ولا يفقه للنظام معنى . ذعر وآمال لا تنتهي. حالتان يستوي فيهما الريفى والطفل فسكونهما يضارع قلقهما وحشيتهما تماثل طاعتهما. ذلك شأن المزاج الذى لم يرتب والتربية التي انعدمت لا يندهشان لامر وكل أمر يفقدهما الصواب. يرتجفان ويرهقان وفيهما الاقدام والشجاعة . فيقتحمان النار . ويجفلان من الظل . ويجهلان العلل والمعلولات . ويسارعان الى الفتوز مسارعتهما الى التهوس . فيهما استعداد للفزع والذهول . ويتخبطان من الافراط الى التفريط فلا يعرفان الوسط ولا القدر الذى ينبغي أبداً. ألين من الماء تنعكس فيهما جميع الألوان . ويتشكلان بكل الصور. أى رجاء فى حكومة تؤسس فوقهما »

لكن من حسن الحظ أن جميع الصفات التى اتينا على ذكرها فى المجالس النيابية لا تظهر دائماً لان تلك المجالس لا تكون جماعات الا فى بعض الاحايين . والغالب أن كل عضو من أعضائها يحفظ ذاتيته على استقلال . ومن هنا صح لها أن تسن من القوانين الفنية

ما هو حسن للغاية . نعم أن الذى يضع هـذه القوانين انمـا هو
اختصاصي واحد يحضرها في سـكون مكتبته وكل قانون اقره المجلس
هو صنع فرد واحد لا صنع المجلس كله . ولـكن القوانين التى
وضعت بهذه الـكيفية هى أحسن ما يشرع وانما يكون القانون
ضاراً اذا أدخلت عليه في الهيئة تعديلات رديئة فجعلته من صنع
الجماعة . ذلك لان صنع الجماعة أحط درجة من عمل الفرد دائماً
وفى كل مكان . والاختصاصيون هم الذين ينجون المجالس النيابية
من الوقوع في الاعمال المضرة التى لا يهذبها الاختبار فالاختصاصى
يكون عند ذلك قائداً وقتياً يؤثر فى المجالس ولا تأثير للمجلس فيه

المجالس النيابية هى أحسن الوسائل التى اهتدت اليها الامم
فى حكم نفسها وبالاخص فى التخلص ما استطاعت من نير المظالم
الشخصية مع ما عليه المجالس المذكورة من صعوبة الحركة. وهى
على التحقيق أرقى أشكال الحـكومات إن لم يكن عند الـكافة فعند
الفلاسفة والمفكرين والـكتاب وأهل الفنون والعلماء وبالجملة عند
كل عنصر من العناصر التى تتكون منها ذروة الحضارة فى الامم

على اننا إذا نظرنا اليها من الجهة العملية لا نرى لها إلا ضررين
كبيرين الاول تبذير الاموال تبذيراً لا مناص منه . والثاني الترقى
فى تحديد الحرية الشخصية

فاما الضرر الاول فهو نتيجة عدم تبصرة الجماعات الانتخابية فاذا قدم أحد الاعضاء طلبا لسد حاجة اجتماعية ديموقراطية ولو فى الظاهر كتقرير معاش لجميع العملة أو زيادة مرتبات بعض خدمة الريف والمعلمين وهكذا لايسع الاعضاء الآخرين أن يرفضوه لخوفهم من الناخبين حتى لايظهروا بمظهر من لا يهتم بمصالحهم ولو كانوا على يقين من أن الطلب يبهظ الميزانية ويفضى إلى تقرير ضريبة جديدة . إذن يستحيل عليهم الرفض . أما نتائج الزيادة فى المصروفات فهي بعيدة ولا تأثير لها فى أشخاصهم إلا قليلا بخلاف مالو رفضوا الطلب فان النتيجة تتجلى يوم يضطرون للوقوف أمام الناخبين وما ذلك اليوم ببعيد

وهناك سبب قوى آخر يستلزم زيادة المصروفات وهو الاضطرار لمنح المصروفات المحلية إذ لا يجرأ عضو فى المجلس على رفض طلبها لكونها فى منفعة الناخبين مباشرة ولانه لا يتمكن من نيل ما يريده لمركزه إلا إذا أقر ما يطلبه زملاؤه لمراكزهم[1]

---

(١) ذكرت جريدة (ايكونوميست) فى عددها الصادر بتاريخ ٦ ابريل سنة ١٨٩٥ بياناً غريباً للنفقات التى تتكلفها تلك المصالح المحلية فى سنة واحدة وخصوصاً السكك الحديدية فكان كما يأتى : الخط بين (لانجاى) وسكانها (٣٠٠٠) نسمة وهى منزوية فى أحد الجبال و (بوى) خمسة عشرة مليوناً . والخط بين (بومون) وسكانها (٣٥٠٠) نسمة و (كاستيل سازاران)

وأما الضرر الثانى وهو التدرج فى تقييد الحرية الشخصية تدرجا قهريا كذلك فهو ضرر محقق وان كان أقل وضوحا من الاول. وهو نتيجة القوانين العديدة التى لاتدرك المجالس النيابية نتائجها تماماً لبساطة أفكارها ولكونها تحسب أنها مضطرة لتقنينها وليست القوانين إلا قيوداً .

والظاهر أنه لامفر من هذا الخطر لان انكلترا نفسها لم تتمكن من اتقائه مع أن نظامها النيابي أكمل النظامات لان

سبعة ملايين . والخط بين (اوست) وسكانها (٥٢٣) نسمة و (سيكس) وسكانها (١٢٠٠) نسمة سبعة ملايين . والخط بين (براد) وكفرة (اوليت) وسكانها (٧٤٧) نسمة سبعة ملايين وهكذا . ويبلغ مجموع كلفة السكك الحديدية التى تقرر انشاؤها فى سنة ١٨٩٥ وحدها ولم يكن لها منفعة عامة مطلقا تسعين مليوناً وستبلغ مصروفات تنفيذ قانون معاشات العمال ١٦٥ مليون بحساب ناظر المالية أو ٨٠٠ مليون بحساب (لوروابوليو) عضو جمعية العموم. ولا يخفى أن استمرار زيادة المصروفات على هذا النحو يؤدى إلى الافلاس . وقد وصل اليه كثير من الممالك فى اوربا مثل البرتغال واليونان واسبانيا وتركيا ومنها ما أصبح قادما عليه مثل ايتاليا . الا انه لاداعى للاهتمام كثيراً بما ذكر لان الناس قبلوا نقص الفائدة التى تدفعها تلك البلاد على ديونها بمقدار اربعة الاخماس من دون امتعاض كبير. وهى تفاليس محكمة التدبير تسمح لاممها باصلاح ميزانياتها . على أن الحروب والاشتراكية والمزاحمات الاقتصادية تضمر لنا مصائب أشد وانكى . وقد دخلنا فى زمن التفكك والتحلل العام. فعلينا الرضا بالعيش يوماً بيوم . وأن لانهتم بالغد لانه ليس فى ملكنا

النائب الانكليزي أكبر النواب استقلالا أمام ناخبيه. وقد أشار (هربرت سبنسر) منذ زمن بعيد إلى أن الزيادة الظاهرية في الحرية الشخصية لاتلبث أن تتبع بنقص حقيقي فيها. ثم عاد إلى هذه النظرية في كتابه الذى سماه (الفرد والحكومة) ومما قاله «جرى التشريع منذ ذلك الحين على النحو الذى أشرت اليه. فما أسرع ما كثرت اللوائح القسرية وكلها ترمى إلى تحديد الحرية الشخصية. وذلك من طريقين. الاول ان كل سنة قد أربت على سابقتها فى كثرة اللوائح التى تلزم الافراد بواجبات كانوا أحراراً منها. وتفرض عليهم أعمالا كانت مباحة ان شاؤا فعلوها وان شاءوا أهملوها. والثانى زيادة الضرائب العامة التى يجب على الافراد القيام بها وذلك يحرمهم من ثمرات كسبهم بقدر مايزيد فى المال الموكول صرفه إلى مشيئة الموظفين العموميين»

وهذا الترقى فى تحديد الحريات يظهر فى جميع البلاد بصورة واحدة لم يذكرها (هربرت سبنسر) وهى أن احداث تلك القوانين المقيدة ينتج حتما زيادة عدد الموظفين المكلفين بتنفيذها ثم هو يقوى نفوذهم ومآل أولئك الموظفين بهذه الطريقة صيرورتهم سادة البلاد المتمدنة الحقيقيين. لان طائفتهم هى التى لا ينالها أثر التقلبات المستمرة التى تطرأ على حكومة البلاد ولذلك كانت

سيطرتها شديدة علي قدر ثبوت قدمها في الوظائف فهي الطائفة الوحيدة التى لاتبعة عليهامن أعمالهاولاشخصية لاحد فى مجموعها وهى باقية على الدوام. ومن المعلوم أن أشد صور الاستبداد هى التى اجتمعت فيها تلك الصفات الثلاث

ان الاستمرار على سن هذه القوانين واللوائح المقيدة لحرية الناس والتى تحيط بكل حركة من حركاتهم وان صغرت بسور من الاجراآت (البيزنطية) من شأنه أن يضيق دائرة العمل الذى لا قيد فيه لكن الأمم قد خدعت في خيالها فحسبت أن الاكثار من القوانين توكيد لضمان الحرية والمساواةوصارت تقبل كل يوم قيداً ثقيلا

على انها لا مهرب لها من نتيجة هذا الرضا فان التعود على احتمال النيركل يوم يفضى بها الى تطلبه وفقدان ملكة الاقدام وقتل العزيمة فتصبح حينئذ أثراً بعد عين والآلات تنفعل بحركة غيرها لا ارادة ولا صلابة ولا قوة

واذا فقد الانسان المقدمات فى نفسه اضطر الى طلبها فى غيره وكلما ازداد عدم اهتمام الافراد وضعفهم اشتدت سطوة الحكومة وقويت شوكتها بالضرورة . هنالك تضطر الى ابدال اقدامهم على الاعمال باقدامها والقيام مقامهم فى الاخذ بيد المشروعات

كلها والتداخل فى تنظيم سير الافراد دونهم لانهم أضاعوا ملكة ذلك كله ـ وتصبح الحكومة مكلفة بان تعمل كل شىء وتدير كل شىء وتحمى كل شىء فتصير الهاً قادراً . الا أن التجربة دلت على أن قدرة مثل هذا الاله لم تكن قوية ولم تدم الا قليلا

والظاهر أن الترقى فى تقييد الحريات عند بعض الأمم التى تظن انها متمتعة بها لما هى فيه من الاطلاق الصورى ناشىء من هرمها كما ينشأ عن هرم أى نظام كان . وذلك نذير دور الانحطاط التى لم تنج منه مدنية حتى الآن

واذا قسنا الحاضر بالماضى ورجعنا الى العلامات التى تبدو من كل صوب حكمنا بان عدداً كبيراً من مدنياتنا الحاضرة قد وصل الى اقصى حدود الهرم الذى هو طليعة الانحطاط. والظاهر انه لا بد لجميع الأمم من عبور هذه السبيل لان التاريخ يروى لنا انه دور كثيراً ما تجدد

ولقد يسهل بيان الادوار التى تتقلب فيها المدنيات بقول موجز وهو الذى نريد أن نختم به هذا الكتاب فلعل فيه توضيحاً لاسباب قوة الجماعات

اذا سبرنا المدنيات التى سبقت مدنيتنا فى حالتيها الرقى والانحطاط فما الذى نعثر عليه

نمر في فجر هـذه المدنيات على خليط من الناس مختلف الاجناس جمعتهم عفواً الهجرة والاغارات والفتوحات ولـكونهم اختلفوا في المحتـد وتباينوا لغة وديناً لم يكن بينهم من الرابطة العمومية الا سلطة الرئيس على ضعف اعترافهم بها . وفي تلك المجامع المختلطة نشاهد صفات الجماعات بارقى صورها فلها منها الائتلاف الوقتي . والشجاعة والضعف . والاندفاع والقسوة . وعدم ثبات شيء من ذلك . ان هم إلا قوم متوحشون

ثم دار الزمان فادى وظيفته . وأخذت جامعة البيئة وتـكرار التناسل وحاجات المعيشة الاجتماعية تؤثر اثرها شيئاً فشيئاً وبدأت اجزاء المجموع المختلفة تمتزج بعضها ببعض وتـكون شعباً أي تركيباً ذا صفات عامة ومشاعر متشابهة تمكنها الوراثة كل يوم. هـكذا صارت الجماعة أمة وآن لهذه الامة أن تخرج من دائرة الهمجية

على انها لا تخرج منها الا اذا تـكون لها مقصد عام تشخص اليه . وذلك لا يتم الا بعد مجهودات طويلة . ومغالبات متجددة على الدوام . وبدايات يخطئها الحصر. وسـواء كان المقصـد العام الوهية روما أو تعظيم اثينا أو نصرة الله فهو يكفي لتوحيد افـكار افراد الأمة وهي في دور التكوين

هنالك تتولد مدنية جديدة بما تقتضيه من النظامات والعقائد والفنون وينجر الشعب وراء مقصده ويصل الى ما ينيله الابهة والجلال والقوة والاعظام . ثم تعرض له أحوال يكون فيها جماعة الانه يكون له خلف صفاتها المتقلبة ذلك الموجود القوى اعنى روح الشعب فهى التى تقيد تقلباته وتحددها وتضع للمصادفات نظاماً مسنوناً

فاذا أتم الزمان صنعه الايجادي يبدأ بصنعه الاعدامى الذى لم ينج منه عابد ولا معبود فتقف المدنية عند وصولها الى حد معين من الشوكة والتشعب ومتى وقفت أسرع اليها الانحطاط لا محالة فقد اقتربت الشيخوخة ودنت ساعة الاجل

علامة تلك الساعة التى لا مفر منها تكون دائماً ضعف اليقين بالمقصد الذى اتكأت عليه روح الشعب . وكلما ازوى عود هذا الخيال اندكت صروح الدين والسياسة والاجتماع التي كانت تستمد حياتها منه .

كلما ازوى خيال الشعب فقد هو علة امتزاجه وداعي وحدته وموجد قوته . وتمت شخصية الافراد . وعظم الذكاء فيهم غير أن ذلك يصطحب بحلول الاثرة الشخصية المفرطة محل الاثرة القومية،

ووراءه انطماس الاخلاق . وضعف القدرة على العمل . ويصبح ذلك التركيب الذى كان يكون أمة ـ أى وحدة وان شئت فقل كتلة ـ جمعاً مؤلفاً من افراد غير مؤتلفين . لا رابطه بينهم إلا الجامعة الصناعية الآتية من التقاليد والنظامات. ومتى وصل الناس الى هذه الحال من افتراق المنافع واختلاف النزعات وعدم الاهتداء الى طريقة يحكمون بها أنفسهم جدوا فى طلب من يقودهم فى جميع أعمالهم وان صغرت فتأتى الحكومة بسلطانها وتبتلع كل شىء.

واذا تم فقدان الخيال تم فقدان روح الأمه . فتعود خليطاً من الناس كل يعمل على شاكلته. وترجع الى ما كانت عليه فى بدايتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية. فلاشعور . ولاأمل. هنالك تنهدم أساطين المدنية . وتمسى هدفا لحوادث الاتفاق . وتصير العامة سلطانة فى الناس . وتبدو طلائع المتوحشين . وقد يلوح على المدنية انها باقية فى بهائها لان محياها لا يزال يضىء بما كسبته الاجيال الطويلة من البهجة والرواء ولكن الحقيقة انه بناء اكله السوس وفقد دعائمه واستعد للسقوط بأى عاصفة .

فمن همجية الى حضارة وراء مقصد فى الخيال . ومن حضارة الى انزواء . فموت حين يضمحل الخيال . هذا مدار حياة الامم

﴿ تم ﴾

فهرست

صحيفة

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الاول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفساني

الفصل الثاني

مشاعر الجماعات وأخلاقها

صحيفة   الفصل الثالث

صحيفة الفصل الرابع

صحيفة الفصل الثانى

الى المتقدات العامة كثيرة التغير ـ فى أن تغير المتقدات والافكار يظهر فى أقل من قرن واحد ـ فى حدود هذا التغير الحقيقة ـ فما يكون فيه التغير ـ فى أن زوال المتقدات العامة فى العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار ـ فى أن أفكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال ـ فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق ـ فى أن تشعب الافكار فى الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

تم


Bibliotheca Alexandrina
0429661